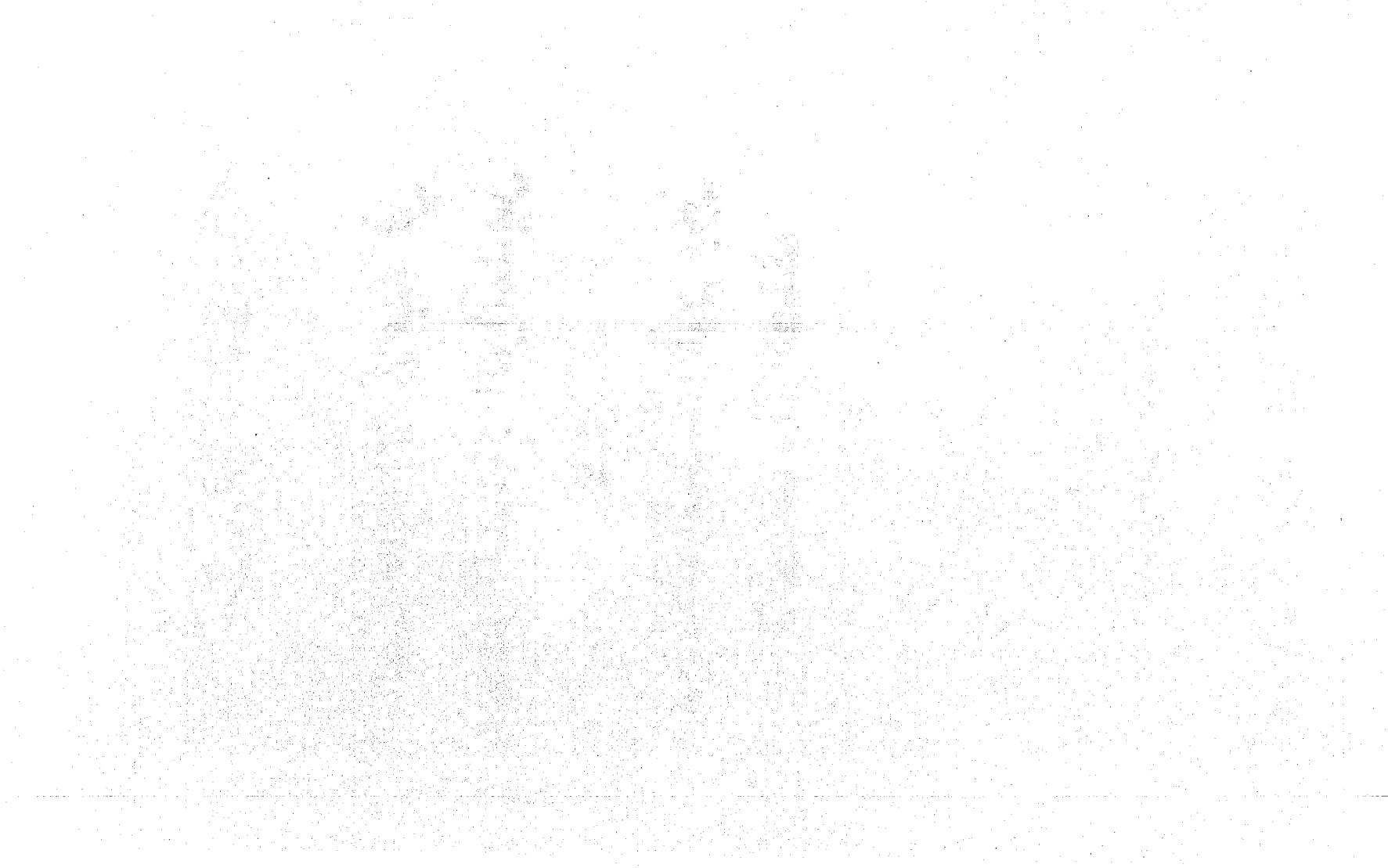


الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين في دراسات المستشرقين بين الإنصاف والإجحاف

إعداد

د/ على حسن أحمد حسن





الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين فى دراسات المستشرقين بين الإنصاف والإجحاف

إعداد

د/ على حسن أحمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد الله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. وبعد.

فمنذ أن ظهرت الدعوة الإسلامية على مسرح الوجود، وأعداء الإسلام يتأولونها حسبما تسول لهم أنفسهم، وتملي عليهم شياطينهم، مبتعدين بتأويلاتهم عن المعني السامي لتلك الرسالة، وعلى الرغم من أن النبيﷺ قد بين لقومه – ولغيرهم- حقيقة رسالته في قوله لهم:" مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي.."(١).

ومع ذلك فإن كثيراً من المستشرقين والمغرضين أعداء الإسلام، لدي دراستهم للفتوحات الإسلامية أولوها بنفس تلك الأباطيل التي دحضها النبيﷺ، ورغبة في كشف زيف هؤلاء المستشرقين

(١) ابن هشام: السيرة النبوية م١ص٢٩٦،تحقيق/ مصطفي السقا وآخران، ط/٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٥٥م، الكلاعي: الاكتفاء ج١ص١٧٣، تحقيق د/محمد كمال الدين، ط/١، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤١٧هـ.

وأذيالهم جاء هذا البحث تحت عنوان: "الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين في دراسات المستشرقين بين الإنصاف والإجحاف"، وقد قسمتُ هذا البحث إلى مبحثين:الأول بعنوان: "بواعث الفتوحات الإسلامية"، والثاني بعنوان: العوامل التي ساعدت على سرعة الفتوحات"، بالإضافة إلى المتممات من مقدمة، وتمهيد، وخاتمة.

أما عن المنهج الذي سرتُ عليه -في هذا البحث- فقد استعرضت آراء المستشرقين في كل شبه، ودحضتها من خلال ما جاء في المصادر الأصيلة، بالإضافة إلى تدعيم تلك الردود بأقوال المنصفين من المستشرقين ما أمكن ذلك، كما ذكرت بيانات المصادر والمراجع كاملة عند أول ذكر لها استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع، كما التزمت الترتيب الأبجدي في أسماء الباحثين من المسلمين والمستشرقين في الهوامش.

وبعد فإن كنت قد وفقتُ إلى ما قصدت فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني بشر.

التمهيد

ما أن بزغت شمس الإسلام في الجزيرة العربية حتى أخذ نورها يسطع على ما حولها من الأمم،والتي كان يتصدرها دولتان عظيمتان هما:دولة الفرس،ودولة الروم، واللتين كانتا في صراع مستمر مع بعضهما البعض،بالإضافة إلى أن الدولتين كانتا تعانيان من اضطرابات سياسية،وظلم اقتصادي، وفساد أخلاقي،وخلاف ديني، أثر على كلتا الدولتين كثيراً(١).

وعلى الرغم من تلك الأحوال السيئة فإن كلتا الدولتين لم تستجب لدعوة الحق وتسارع إلى الدخول في الإسلام حين وجه إليهما النبيﷺ الدعوة في رسالتين ضمن سلسلة الرسائل التي بعث بها إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام(٢).

فملك الفرس مزق كتاب النبيﷺ وأرسل إلى عامله على اليمن يأمره أن يأتيه بالنبيﷺ، وكان امتثال العامل لهذا الأمر سبباً في إسلامه ومعه الأبناء من أهل اليمن، فملكه النبي ﷺعلى قومه، فكانت اليمن بذلك أول دولة تقتطع، من أملاك كسرى تحقيقاً لدعوة النبيﷺ"أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ" لمّا بلغهﷺ تمزيق كتابه(٣)، وفي هذا

(١) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص٣٥، ترجمة /نبيه أمين وآخر، ط/١، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٥٤م، د/ الفرد بتلر:فتح العرب لمصر، ترجمة/ محمد فريد، ط/٢، مكتبة مدبولي، القاهرة،سنة ١٩٩٦م.

(٢) ابن سعد: الطبقات ج١ص ص٣٦٥، ٤١٣،تحقيق د/حمزة النشرتي وآخران، المكتبة القيمة، القاهرة(د.ت)، د/ألبرت حوراني: تاريخ الشعوب العربية ج١ ص ٥٣،ترجمة/ نبيل صلاح الدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.

(٣) ابن سعد: الطبقات ج١ص٣٦٨،البخاري: الجامع الصحيح ج١ص٣٦، الحديث رقم ٦٤، تحقيق د/ مصطفي ديب البغا، ط/٣،

دليل على إن الإسلام لا يسلب الملوك ملكهم، ولا ذوي الثروات ثرواتهم،وإنما يرضى منهم بالتوحيد، ويترك لهم ديارهم وأموالهم.

وأما ملك الروم فعلى الرغم من أنه أجاز رسول رسول اللهﷺ إليه بِمَالٍ وكَسَاهُ كُسَى، إلا أنه قتل كل من دخل في الإسلام من أهل الشام، كما قتل جنوده سرية مكونة من خمسة عشر رجلاً إلا واحداً- لاذ بالفرار- خرجوا لنشر الإسلام بموضع يسمى"ذات أطلاع" من أرض الشام، يضاف إلى ذلك أن هرقل أرسل نحو مائة ألف جندي لمساندة حلفائه من الغساسنة عندما سير إليهم النبيﷺ سرية من أصحابة لتأديبهم على قتلهم لرسول رسول الله ﷺ، ومن ثم كانت غزوة مؤتة (سنة ٨هـ/٦٢٩م)، ولم ينته العداء عند هذا الحد بل تنقل الأخبار للنبيﷺ في(سنة ٩هـ/ ٦٣٠م) أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلب معهم قبائل العرب، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء، فما كان من النبيﷺ إلا أن خرج إليهم حتى قدم تبوك في ثلاثين ألفاً من أصحابه، فوجدا الروم قد انسحبوا فكتفي بذلك، ولم يلاحقهم داخل الشام (١).

وعلى الرغم من ذلك ظل النبيﷺ على حذر من الروم، حتى إنه أوصي في مرض موته ﷺ بضرورة أنفاذ بعث أسامة الذي كان قد

دار ابن كثير، بيروت، سنة ١٩٨٧م، الطبري: تاريخ الرسل ج٢ص ص٦٥٤، ٦٥٦، تحقيق/ محمد أبو الفضل، ط/٤، دار المعارف، القاهرة، سنة١٩٧٧م.

(١) الواقدي:المغازي ج٢ص ص٥٥٥، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٥ ، ٧٦٠، ج٣ ص٩٩٠، تحقيق د/مارسدن جُوسن، دار ابن خلدون، الإسكندرية (د.ت)، ابن هشام:السيرة النبوية م٢ص ص٣٧٥، ٥١٦، ٥٢٧، ٥٩١، ٥٩٢، ابن كثير: البداية ج٤ص٢٤٢، ج٥ص٧، ١٧، تحقيق د/ أحمد أبوملحم وآخران، ط/١، دار الريان للتراث، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

أعده لغزو الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين(١).

وبعد انتقال النبيﷺإلى الرفيق الأعلى، وفي أقل من ثلاثين عاماً، قام المسلمون بحركة فتوحات واسعة كان نتيجتها اقتطاع أعظم ممتلكات الروم في بلاد الشام ومصر وشمال، إفريقية، وأُزيلَت دولة الفرس من الوجود نهائياً(٢).

فما هي بواعث تلك الفتوحات؟ وما هي العوامل التي ساعدت عليها؟ هذا ما سنتعرف عليه من خلال استعراض آراء المستشرقين في تلك القضية.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية م٢ص ص٦٤١، ٦٤٢، ٦٥٠، ابن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٠، تحقيق د/ أكرم ضياء العمري، ط/٢، دار طيبة، الرياض، سنة ١٩٨٥م.

(٢) ألبرت حوراني:تاريخ الشعوب العربيةج١ص٥٣، زيغريد هونكه:شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٥٦، ترجمة/ فاروق بيضون وآخر، ط/٨، دار الآفاق، بيروت، سنة١٩٨٦م، فشر: تاريخ أوربا ص٦١، ترجمة د/ محمد مصطفى،وآخر، ط/٦،دار المعارف،القاهرة،سنة١٩٧٦م.

المبحث الأول
بواعث الفتوحات الإسلامية

تختلف آراء المستشرقين في البواعث التي حَدَت بالمسلمين إلى القيام بحركة الفتوحات الكبرى، ودخولهم في مصادمات مع دولتي الفرس والروم، وفي تفسيرهم لسر نجاح المسلمين في فتوحاتهم على الرغم من بساطة العرب وقلة عددهم، وفيما يلي نستعرض تلك الآراء وما فيها من إجحاف للمسلمين وهضم لحقوقهم، والرد عليها.

أولاً: الباعث الدينية:

كان أهل الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام في حالة من التفكك الديني والسياسي والاجتماعي، فحولتهم رسالة النبيﷺ إلى أمة واحدة مترابطة كالبنيان المرصوص، ومن أمة هامدة إلى أمة صاحبة رسالة تسعى لتبليغها للناس كافة(١)، عملاً بقوله سبحانه:﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢)، وامتثالا لقوله:ﷺ" بلِّغوا عنّي ولَوْ آيَةً"(٣) ، وقوله: "لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ منكُمُ الغائب"(٤)، بالإضافة إلى حرصهم على الأجر والثواب وألا تنقطع أعمالهم برحيلهم لقولهﷺ:" مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كان لهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب ص ٣٥٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية١٠٤.
(٣) البخاري: الجامع الصحيح ج٣ص١٢٧٥، الحديث رقم٣٢٧٤.
(٤) البخاري: الجامع الصحيح ج١ص٥٢، الحديث رقم١٠٥، الحاكم: المستدرك ج٤ص٣٤٥، الحديث رقم ٧٨٦١، تحقيق/ مصطفي عبدالقادر، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة١٩٩٠م.

وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"(١).

إلا أن المستشرقين لدى دراستهم لهذا الباعث أجحفوا المسلمين حقوقهم ، وخرجوا علينا بالعديد من الافتراءات منها:

الافتراء الأول: إنكار الدين الإسلامي وإنكار عالميته:

يدعى بعض المستشرقين أن الإسلام دين إقليمي أو قومي، وليس ديناً عالمياً منهم:بندلي جوزي، وجاك ريسلر، و ديورانت، وكيتاني، ووليم مور(٢)، فعلى سبيل المثال يقول كيتاني:"إني أشك في أن يكون النبي قد تخطي بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدين"، بينما يقول جاك ريسلر:" إن الإسلام للعرب فقط"(٣)، أما ديورانت فيقول:"ولكن يبدو أنه – أي النبيﷺ- لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب"(٤).

(١) ابن حنبل:المسند ج٢ص ٣٩٧، الحديث رقم٩١٤٩، مؤسسة قرطبة، مصر (د. ت) ،مسلم:صحيح مسلم ج٤ص٢٠٦٠، الحديث رقم٢٦٧٤، تحقيق/محمد فؤاد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

(٢) يمكن مطالعة تلك الآراء في بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص١٢، مطبعة بيت المقدس(د.ت)، ديورانت: قصة الحضارةج١٣ ص٢١، ترجمة/محمد بدران، دار الجيل، بيروت (د. ت)، د/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ص١٣٧، ط/١٤، دار الجيل، بيروت، سنة١٩٩٦م، د/شوقي أبو خليل: أضواء على مواقف المستشرقين ص١٥٧، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس،ليبيا، سنة١٩٩١م.

(٣) نقلاً عن د/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ص١٣٧، د/ شوقي أبو خليل: أضواء ص١٥٧.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ ص٤١.

وقد أخذ بهذا الهُرَاء وروج له بعض الكتّاب العرب(١).

في حين يقول جوزي:"إن القول بأن الإسلام فكرة دينية محضة وإن ظهوره..وانتشاره السريع .. وفتوحات الخلفاء الراشدين..ترجع إلى الحماسة الدينية أو التعصب الديني يُعَد اليوم قولاً جزافاً .. فقد أصبح اليوم من المقرر أن الإسلام كغيره من الأديان الكبيرة ليس فقط فكرة دينية بل مسألة اقتصادية واجتماعية أيضاً أو بالأحرى هو مسألة اقتصادية اجتماعية أكثر منه فكرة دينية"(٢).

ومثل هذه الأقوال تُنبئ عن جهل مركب أو خبث متعمد، ولذلك تصف لورا فيشيا أولئك المستشرقين بأنهم"إما عمياً أو إما غير راغبين في أن يروا"(٣)، ولذلك نقول لهؤلاء المستشرقين - ولمن سار على دربهم- ابشروا فإن الله يقول:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٤)، ويقول:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٥) .

وحتى لا نُتهم بالتعصب نكتفي في الرد على افتراءات هؤلاء الأغرار بذكر آراء أمثالهم من المستشرقين المنصفين.

(١) راجع ص٢٦من كتاب:في الشعر الجاهلي لطه حسين، نقلاً عن د/سعد الدين صالح: الأساليب الحديثة ص١١٦، ط/٣، دار التقوى، القاهرة، سنة ١٩٩٥م.

(٢) بندلي جوزي:من تاريخ الحركات ص١٢.

(٣) لورا فيشيا فاغليرى: دفاع عن الإسلام ص٢٦، ترجمة/ منير البعلبكي، ط/١، دار العلم للملايين، بيروت، سنة١٩٦٠م.

(٤) سورة آل عمران: الآية١٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية٨٥.

يقول أرنولد:"الإسلام دين عالمي..ولم تكن الرسالة مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها"(١)، بينما يقول سُورديل: "الإسلام هو دين التوحيد الذي بشر به محمد بن عبد الله في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ثم انتشر عبر العصور في جميع المعمورة"(٢)، في حين قال حوراني:" كانت لتعاليم محمدﷺوأفعاله صبغة عالمية... ومن المعتقد أنه بعث رسلاً إلى الدول الكبرى يدعوهم للاعتراف برسالته"(٣).

ومن الشهادات المُنصَّفَةُ أيضاً شهادة لوبون(٤)، وكار لايل الذي يقول: "لقد أصبح من العار على أي فرد من أبناء هذا العصر أن يُصغى إلى ما يظن من أن الإسلام دين كذب وأن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا"(٥).

فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وتكفل بإظهاره على سائر الملل، قال سبحانه:﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٦) .

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٤٨، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخران، ط /٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٧م.

(٢) دومينيك سُورديل:الإسلام ص٥،ترجمة/ خليل الجر،المنشورات العربية،بيروت.

(٣) ألبرت حوراني: تاريخ الشعوب العربية ج١ص ص٥٢، ٥٣.

(٤) غوستاف لوبون:حضارة العرب ص١١٠، ترجمة/عادل زعيتر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة٢٠٠٠م.

(٥) توماس كارلايل:الأبطال ص٥٣،ترجمة/ محمد السباعي، مكتبة مصر،القاهرة، سنة١٩٩٤م.

(٦) سورة الصف: الآية٩.

الافتراء الثاني: إن الفتوحات كانت حرباً دينية لإجبار الناس على الدخول في الإسلام:

ردد هذا الافتراء كثير من المستشرقين والحاقدين ممن كشف الإسلام زيف عقائدهم، وتحريفهم لكتبهم ومن هؤلاء بروكلمان الذي يقول:" ولكن واحداً أول الأمر لم يكن يتوقع أن يعتنق غير العرب الإسلام،وعلى هذا الأساس كان الغرض من الحرب المقدسة الجهاد إخضاع الأعاجم لسلطان العرب قبل كل شيء...ويتحتم على المسلم أن يُعلن العدواة على غير المسلمين حيث وجدهم لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني "(١).

ويدعى جولد تسهير في عدة مواضع من كتابه العقيدة والشريعة أن النبيﷺ بعد الهجرة في سبيل أقامة مملكته رفع "السيف الدمى". وكان "الجهاد المادي العالمي هو الوصية التي تركها محمد لخلفائه، والنتيجة أنه لم يكن عنده أي استثناء للسلام... ومن ثم ترى أن مهمة المجاهدين في الإسلام لم تكن هداية الكافرين فحسب بل وإخضاعهم أيضاً" (٢).

وأما سيديو فيقول عن النبيﷺ:"فعقد نيّته على سلوك سبيل الجهاد، والجهاد ما رآه أكبر وسيلة لاستمالة الناس إلى الإسلام"، ويقول:"كان إيمان العرب بأن عباد الله الصالحين هم الذين يرثون الأرض يزيدهم قوة...حاملين القرآن في يديهم والسيف في اليد الأخرى"(٣).

(١) كارل بروكلمان:تاريخ الشعوب الإسلامية ص١٠٧،ترجمة/نبيه أمين، ط/١١، دار العلم للملايين، بيروت،سنة ١٩٨٨م،د/ شوقي أبو خليل: أضواء ص١٦٥.

(٢) جولد تسهير:العقيدة ص ص٣٤، ٣٥، ٣٩، ترجمة/محمد يوسف وآخران، ط/ ٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت).

(٣) سيديو:تاريخ العرب العام ص ص٦٦، ١١٥، ١٣٣، ترجمة/عادل زعيتر، ط/ ٢، مكتبة الإيمان، القاهرة، سنة١٩٦٩م.

بينما يقول فلهوزن:" وقد أصبح الإسلام... ديناً قوياً بحد السيف، وانتشر بين الشعوب عن طريق الإنذار والوعيد"،ويذكر أن النبيﷺ انتقل"إلى جوار ربه وترك لخلفائه إتمام مهمته وذلك بإخضاع الكفار"، ويقول:"ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة للحرب، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول في الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية"(١).

وعبارة انتشار الإسلام بالسيف يهدف قائليها من ورائها وصم الإسلام بالبعد عن حرية الفكر، وعن الرحمة الإنسانية، وهؤلاء المستشرقين لم يميزوا بين اعتناق الإسلام و بين مفهوم الجهاد الذي يعمل على إزالة الحواجز والعراقيل من وجه الدعوة لتبلغ الإسلام(٢)، فهو وسيلة لغاية وليس هو الغاية في حد ذاته، كما أن النبي ﷺلم يقم لنفسه مملكة، وإنما "أقام لله ديناً قيماً استطاع أن ينهض بدعائمه بثروة من قوى الكفاح الحر في وجهه مملكتين ملأتا العالم جوراً"(٣)، يتضح ذلك مما يأتي:

أولاً: إن القرآن يأمر بالدعوة والإقناع وينهى عن الإكراه(٤)، قال تعالى:{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (٥)، وقال:{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ

(١) يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ص٥، ٩، ٢٣، ترجمة د/ محمد عبد الهادي، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،سنة١٩٥٨م.

(٢) د/جميل عبدالله: دواعي الفتوحات الإسلامية ص ٣٩، دار القلم، دمشق (د. ت)، د/ شوقي أبو خليل: أضواء ص ص١٦٨، ١٧٠.

(٣) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ص٤٧،ط/٢، نهضة مصر،القاهرة، سنة١٩٩٧م.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٢٧.

(٥) سورة البقرة: الآية٢٥٦.

شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}(١)، كما أن عدم قبول دعوة السلم فيه معصية لله سبحانه وتعالى القائل لرسوله ﷺ:{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}(٢).

ثانياً:نص النبي ﷺ على عدم الإكراه- ولو لأقرب الناس للمسلم- ففي العهد الذي منحه النبي ﷺ لرهبان دير سانت كاترين"إذا صارت النصرانية عند المسلم فعليه أن يرضى بنصرانيتها وألا يكرهها على شيء من أمر دينها"(٣)، وليست هذه الحرية قاصرة على أهل الكتاب وإنما شملت غيرهم من أصحاب الملل الوضعية، كما جاء في معاهدات أهل أرمينية، وموقان، وأزبيجان، ودهستان، وجرجان- وغيرهم- والتي نصت على أن"لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك"(٤)،ولذلك يقول ترتون:"ظلت بيوت النار قائمة حتى القرن الرابع الهجري، وكانت كثيرة حتى ليعجز علمها من غير الديوان، وكان في كل ولاية الكثير منها، ويقال:إنه انفق على أحدها ثلاثون مليون درهم"(٥)، وتقول زيغريد هونكه: لم يفرض"العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أي عائق

(١) سورة الكهف: الآية٢٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية٦١.

(٣) السيد أمير علي:روح الإسلام ج١ص١٦٨، ترجمة/ أمين محمود،سلسلة الألف كتاب إشراف إدارة الثقافة العامة، القاهرة، سنة ١٩٦٣م، د/السيد محمد يونس: الفتوحات وأثرها في نشر الإسلام ص٢٩٣، ط/١، دار والى، المنصورة، سنة ١٩٩٢م.

(٤) يمكن مطالعة نصوص هذه المعاهدات وغيرها في الطبري: تاريخ الرسل ج٤ ص ص١٥٢، ١٥٧.

(٥) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص٤٣، ترجمة د/ حسن حبشي، ط/٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة١٩٩٤م.

يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوها بأدنى أذى"(١).

ويذكر بتلر أنه عقب فتح حصن بابليون، فضل بعض القبط الدخول في الإسلام على "دفع الجزية، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويساويهم بالفاتحتين..فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام"، وبعد فتح مدينة دمياط خرج حاكم مدينة "شطا"ومعه ألفاً من الناس فأظهر إسلامه" وانخرط في صفوف المجاهدين(٢).

ثالثاً:أي إكراه- على سبيل المثال- لقواد الروم والفرس على الدخول في الإسلام في أرض المعركة وسيوفهم في أيديهم، وهم بين جنودهم، والمسلمون لم يدخلوا بلادهم بعد، فـ"جرجة" أحد قواد الروم يخرج من بين صفوفهم قبيل معركة اليرموك ليعرف حقيقة الإسلام، وما أن عرفها حتى قال لخالد بن الوليد:" علمني الإسلام فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه ماء ثم صلى به ركعتين" ثم لقي"جرجة" ربه شهيداً في أرض المعركة(٣)، كما اسلم "روماس" حاكم بصري سراً خوفاً أن يُعجل قومه بقتله وسلب حريمه، ثم إعلان إسلامه أمام كل أهل بصري بعد فتحها، فتبعه أهله ورجاله، وانضموا إلى المسلمين يجاهدون معهم(٤).

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب ص ٣٦٤.
(٢) بتلر : فتح العرب ص ص٣٠٥، ٣٧٤.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ص٣٩٨، ٤٠٠، ابن الجوزي: المنتظم ج٤ص ١٢١، ط/١، دار صادر، بيروت، سنة١٣٥٨هـ.
(٤) الواقدي:فتوح الشام ج١ص ص٢٨، ٣١،ط/١،دار الكتب العلمية، بيروت.

في حين نجد "رفيل"-أحد قواد جيش رستم في موقعة القادسية- يقول عن نفسه: وقد استمع إلى حديث رستم مع زهرة بن حوية السعدي(١) عن الإسلام" فلما انصرف رستم ملت إلى زهرة فكان إسلامي وكنت له عديداً"(٢)، فأي إكراه على الإسلام بعد ذلك؟!!! .

بل إننا نجد يوحنا النقيوسي-على الرغم من تعصبه- يشير إلى أن بعض الأقباط اعتنقوا الإسلام بمجرد دخول المسلمون مصر فيقول: "وعندما وصل هؤلاء المسلمون-إلى حصن بابيلون - مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحية، وانضموا إلى عقيدة المفترس"(٣)، أي المسلمين.

وجاء في سياق فتح الإسكندرية أن عمرو بن العاص خير السبايا من القبط بين الإسلام وبين دين قومهم" فكانوا يأتون بالرّجل ممن في أيديهم، ثمّ يخيّرنه بين الإسلام وبين النصرانيّة؛ فإذا اختار الإسلام كبّر المسلمون تكبيرة أشدّ من تكبيرتهم حين تفتح القرية(٤)، والأمثلة كثيرة.

ومن ثم رأينا كاستري يقول:"إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم، هذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه... فلم يقتلوا أمة أبت

(١) زهرة بن حوية التميمي السعدي صحابي، من أشراف الكوفة وشجعانها. شهد القادسية وكثيراً من الوقائع، وتوفي (سنة٧٧هـ/٦٩٦م) الزركلي:الأعلام ج٣ ص٥١، ط/١٢، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٩٧م.

(٢) الطبري:تاريخ الرسل ج٣ص ص٥١٧، ٥١٨.

(٣) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ص١٩٧، ترجمة د/عمر صابر، طبع الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠٠٩م.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ص١٠٦، ابن كثير: البداية ج٧ص١٠١.

الإسلام ..فكلما التقى المسلمون بأمة خيروها بين ... الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزراها"، ويقول أيضاً:" ولا نعلم للإسلام مجمعاً دينيا ولا رسلاً وأحباراً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار"(١).

رابعاً: يصاف إلى ذلك الوصايا التي كان الخلفاء يزودون بها القادة، ومنها وصية الصديق لأسامة بن زيد- حين سيره إلى الشام- والتي جاء فيها"..ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة .. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له "(٢).

خامساً:إن الدعوة إلى الإسلام قبل القتال لم تكن مسألة شكلية، وإنما كانت حقيقة واقعية، -ذكرتها المصادر الأصلية- مثلما حدث قبل المعارك الحاسمة في القادسية ونهاوند، وجلولاء واليرموك وأجنادين، وبابليون، والإسكندرية (٣)، من ثم يعقب رستم - قائد الفرس في القادسية - على عرض زهرة بن حوية بقوله:" أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة، قال: صدقتني والله"(٤).

(١) هنري دي كاستري:الإسلام خواطر وسوانح ص ص٣٤، ٥٦، ترجمة/أحمد فتحي، دار الفرجاني، القاهرة، (د.ت).
(٢) الطبري:تاريخ الرسل ج٤ص ص٢٢٦، ٢٢٧،ابن الأثير:الكامل ج٢ص٢٠٠، تحقيق/عبد الله القاضي، ط/٢، سنة١٤١٥هـ، سيديو: تاريخ العرب ص١١٤.
(٣) د/جميل عبد الله: دواعي الفتوحات الإسلامية ص ٤٧.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٥١٨.

سادساً: نصت العديد من المعاهدات بين المسلمين والفرس والروم على أنه من كره البقاء في الدولة الإسلامية فله أن يخرج منها وهو آمن على نفسه وأهله وماله، ومن أحب البقاء فعليه من الجزية ما على قومه، ومثل هذا النص جاء في معاهدة إيلياء، ومعاهدة الإسكندرية (١)، يقول سيديو:عقب فتح دمشق أذن أبوعبيدة:"لمن يودّ الخروج منهم-أي الروم -في أخذ بعض أموالهم متعهداً بألاّ يقتفى أثره قبل انقضاء ثلاثة أيام وثلاث ليال"(٢)، وكان من شروط صلح الإسكندرية كما ذكر بتلر" أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل عن جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوماً ما بقى في مصر في رحلته "(٣).

سابعاً: إن تاريخ الإسلام بريء من أية حادثة إكراه أو اضطهاد لإجبار الناس عليه، ولو كان هناك إكراه ما قبل المسلمون من أهل البلاد المفتوحة الجزية، ومنحوهم حرية إقامة شعائر دينهم، ويظهر أن هؤلاء المستشرقين لم يفرقوا بين أمرين: أولهما: الجهاد الذي يعني إزالة الحواجز المنيعة من طريق الدين الرباني، وثانيهما:انتشار الإسلام بين أهل تلك البلاد عن طريق الإقناع، وخلوه من تعقيدات الملل الأخرى(٤).

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٢٢، تحقيق/رضوان محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة١٤٠٣هـ، الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٦٠٩، ابن الأثير:الكامل ج٢ص٤٠٨.

(٢) سيديو: تاريخ العرب العام ص١٢٠.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ص٣٤٣.

(٤) د/أمير عبد العزيز: افتراءات على الإسلام ص١٩، ط/١، مكتبة دار السلام، القاهرة،سنة٢٠٠٢م، حامد عبد القادر:الإسلام ظهوره

ولذلك يقول:أرنولد:"إن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح"(١)، بينما يقول كاستري:"لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحه في جميع أرجاء المسكونة"(٢)، وتقول لورا فيشيا:" إن أحداً لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الإسلام الفاتح هو الذي يمهد السبيل أمام الإسلام" (٣).

ومن الشهادات المُنصَّفَةُ أيضاً شهادة توماس كارلايل، وديورانت، وفيليب حتى، وهوبير ديشان(٤)، ونختم بشهادة لوبون والتي يقول فيها: "ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم ...وحين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم-نجد- أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين،ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم

وانتشاره ص ص٢٣٦، ٢٨٠، ط/٣، دار نهضة مصر، القاهرة(د.ت)، د/ شوقي أبو خليل: أضواء ص١٦٧.

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٧٠.

(٢) هنري دي كاستري:الإسلام ص٧٦.

(٣) لورا فيشيا فاغليرى: دفاع عن الإسلام ص٤٠.

(٤) أحمد جمال:مفتريات على الإسلام ص٦٠، ط/٢، دار الشعب، القاهرة، سنة ١٩٧٥م، توماس كارلايل: الأبطال ص ص٧٤، ٧٧، ديورانت:قصة الحضارة ج١٣ص٧٣، فيليب حتى:تاريخ العرب ص٢٠٢، ط/٩، دار غندور للطباعة، بيروت، سنة ١٩٩٤م.

يعرفوها من قبل وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام"(١).

ونصارى الأندلس لم يكونوا بدعاً في هذا الإكراه فقد سبق وأن أكره الرومان أهل مصر على انتحال النصرانية قبل الفتح الإسلامي لبلادهم، وكان"شارلمان" يفرض التعميدات المسيحية بحد السيف، ويصاحبه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا تنصير الناس، بعد أن يكون فتح المدائن"بجيوشه التي كان يُصلى بها الأمم حرباً تجعل الولدان شيبا"،ونشر الملك "كنوت" المسيحية في الدنمارك بالقوة والإرهاب، وفرضت المسيحية في روسيا على يد جمعية "أخوان السيف"وفي القسم الجنوبي من النرويج كان الملك "أولاف ترايجفيسون" يقوم بذبح "الذين أبوا الدخول في المسيحية،أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين في فيكن بأسرها"،أضف إلى ذلك اضطهاد النصارى لإخوانهم على قبول مذهب معين كما حدث في العديد من ولايات الإمبراطورية الرومانية(٢)، والأمثلة كثيرة.

ولذلك يقول روبرتسون: "إن أتباع محمد هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التحمّس في الدين والتسامح فيه، أي أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله"(٣).

(١) لوبون:حضارة العرب ص ص١٢٥ ،١٢٧ ، ١٢٨.
(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ص٣٠، ٣٢، بتلر: فتح العرب ص ١٩١، كاستري: الإسلام ص٤٠، لوبون: حضارة العرب ص٢٠٦.
(٣) نقلاً عن د/ شوقي أبو خليل: أضواء ص١٧٢.

ومن خلال شهادات المنصفين من المستشرقين -السابقة- يتضح أن المسلمين لم يكن هدفهم من الفتوح إرغام الأمم لسلطان العرب، أو إقامة مملكة على بحور من الدماء وأهرام من الجماجم، وأن دعوتهم لغيرهم إلى الإسلام كانت حقيقة واقعية وليست مسألة شكلية، فلم يرغموا إنسان واحد عن طريق الوعد والوعيد، والإنذار والتهديد على الإيمان بالله وحده، كما فعل غيرهم، وأن جهادهم كان لإزالة العقبات التي اعترضت طريق الدعوة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة، فالإسلام كما يقول السيد أمير:" حمل السيف دفاعاً عن النفس، أما المسيحية فقد حملته لخنق حرية الفكر، وحرية الاعتقاد"(١).

ثانياً: الباعث العسكري:

لا ريب في أن موقف دولتي الروم والفرس من الدعوة الإسلامية منذ ظهورها كان موقفاً عدائياً، ولذلك فان الفتوح التي تمت في عصر الراشدين -ومن بعدهم- إنما كانت استكمالاً لما بدأه النبيﷺ ونتيجة طبيعية وضرورية لتعاليمه(٢)، بيد أنه لدى دراسة المستشرقين لهذا الباعث تعمد كثير منهم مخالفة الحقائق التاريخية، وأتوا بالعديد من الافتراءات التي لا صلة لها بالواقع ومنها.

الافتراء الأول: تحريض سكان الإمبراطوريتين للمسلمين:

ادعى بعض المستشرقين أن المسلمين ما خرجوا من جزيرتهم إلا استجابة لنجدة إخوانهم من العرب الذين كانوا يحاربون دولتي

(١) السيد أمير على: روح الإسلام ج٢ص٩٨.

(٢) د/حلمي عبدالمنعم صابر :حياة الصحابة ص٥٨،مؤسسة الطوبجي، القاهرة،سنة ٢٠٠٠م، د/ محمد ياسين مظهر :الهجمات المغرضة ص١١٣،ترجمة د/ سمير عبد الحميد، ط/١، طبع رابطة الجامعات الإسلامية، سنة١٩٨٨م.

الفرس والروم، بالإضافة إلى تحريض بعض رعايا الدولتين للمسلمين على غزوهما.

فيدعى ديورانت:"إن بعض القبائل العربية الضاربة في بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية، وصدت جيوش الإمبراطورية، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين فأرسل إليها أبو بكر المدد، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية"(١).

وذهب جيوم إلى أن الفتوحات كانت استكمالاً لما بدأه العرب المسيحيون من الإغارة على حدود بلاد فارس والتي حطموا جانباً عظيماً من قوتها"حتى هيأ لهم وصول الجيوش الإسلامية من الحجاز الفرصة السانحة للقضاء على الفرس نهائياً"(٢)، أما جب فيدعي أن افتقار قبائل العرب التي كانت تغزوا العراق إلى مثل "النجاح الذي أحرزه المسلمون في بلاد الشام أدي بهم إلى أن يقبلوا تنظيم حملات مشابهة يقودهم فيها مكيون لغزو الإمبراطورية الفارسية"(٣).

بينما ذهب بتلر إلى أن اليهود الذين قاموا بالثورة ضد الإمبراطور هرقل رفضوا العودة إلى ديارهم بعد عفوه عنهم، و ذهبوا "إلى الصحراء واتفقوا مع جند الإسلام وصاروا أدلاء لهم" في بلاد الشام (٤).

(١) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧١.
(٢) ألفريد جُيوم: الإسلام ص١٧، ترجمة /محمد مصطفى وآخر، ط/١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٨م.
(٣) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام ص٨، ترجمة د/إحسان عباس وآخران، ط/٣، دار العلم للملايين، بيروت، سنة١٩٧٩م.
(٤) بتلر: فتح العرب لمصر ص١٩٦.

والقارئ للتاريخ الإسلامي لا يجد مشقة في دحض هذان الافتراءان لما يلي:

أولاً:إن المسلمين لم يسيروا جيوشاً إلى بلاد العراق – كما فعلوا مع بلاد الشام–قبل تداخل الفرس في حروب الردة،كما أن عدداً غير قليل من قبائل العرب المتنصرة لم يدخلوا في الإسلام يضاف إلى ذلك أن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام ارتدوا عقب وفاة النبيﷺ (١)، فما الذي حملهم على الخروج من الإسلام قبل تحقيق أهدافهم؟!!

ثانياً:إن أحد شيوخ القبائل العربية القاطنة في تخوم جزيرة العرب، وهو المثني بن حارثة الشيباني –والذي كان يطارد المرتدتين على ساحل الخليج العربي– لم يتقدم لفتح العراق إلا بعد أن قَدِم على أبي بكر فقال له:" يا خليفة رسول الله استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً"(٢).

ثالثاً: إن العلاقات بين المسلمين واليهود لم تكن طيبة، فقد كان اليهود يحقدون على المسلمين لإخراجهم من المدينة وقتالهم في خيبر، كما أنهم دبروا لقتل النبي ﷺ أكثر من مرة، فكيف يثق المسلمون بهم ؟ وكيف يستنجد بهم اليهود ويدلونهم على عورات الروم؟ ولو حدث ذلك ما كافئهم أمير المؤمنين عمر بقبول شرط النصارى بحرمانهم من الإقامة في بيت المقدس، وما أجلاهم عن خبير إلى بلاد الشام(٣).

(١) الواقدي: كتاب الردة ص٢٢٥، تحقيق د/محمود عبد الله، دار الفرقان، عمان، (د.ت)،البلاذري: فتوح البلدان ج١ص٢٤٢.

(٢) البلاذري:فتوح البلدان ج١ص٢٤٢.

(٣) الواقدي:المغازي ج١ص ص٣٦٤، ٣٦٥،ج٢ص٧٠٧،ابن هشام:السيرة النبوية م٢ص ص١٩٠، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٦،الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٦٠٩.

رابعاً:إن القبائل العربية المتنصرة بالشام ناصبت المسلمين العداء منذ أن دعاهم النبي ﷺإلى الإسلام- كما سبق- فكيف يستنجدون بهم؟.

وهذا يُبين لنا بوضوح فساد آراء المستشرقين في تلك الفرية.

الافتراء الثاني:ارتجالية الفتوحات وعدم وجود خطة منظمة لها:

هذان الافتراءان بدأى بفرضيات وانتهتا بنظريات ومسلمات عند المستشرقين(١)،الذين يحاولون التأكيد على أن العرب لم تكن لديهم خطة منظمة للفتوحات، وأنها جاءت ارتجالية وعن طريق الصدفة، ومن هؤلاء ادوارعطية، وبرنارد لويس، وبروكلمان، وجُيوم، وفشر، فلهوزن، وفيليب حتى(٢)، ومن آرائهم في هذا الصدد.

يقول فشر:"إن العرب خرجوا من بلادهم دون أن يكون لديهم مشروع مفصل لفتح العالم، وإنشاء الدول، وأنهم قاموا قومتهم وأسسوا دولتهم كما أسس غيرهم لأنفسهم دولاً من قبل ومن بعد في غير خطة أو بصيرة، وفي غير هدف واضح أو معلوم"(٣)،بينما يقول جُيوم:"أخذ الغزو سبيله على سبيل الصدفة في الأغلب إلى

(١) د/جميل عبدالله: دواعي الفتوحات الإسلامية ص ٣٥.

(٢) ادوار عطية: العرب ص٣٣، ترجمة/ محمد قنديل، ط/١، الشركة العربية للطباعة، سنة١٩٦١م، برنارد لويس:العرب ص٧٠، بروكلمان:تاريخ الشعوب ص٩٠، جُيوم:الإسلام ص٧٩، فشر: تاريخ أوربا ص٦٢،فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص٢٣،فليب حتى:تاريخ العرب ص٢٠٠،وصانعوا التاريخ ص ٥٨، ترجمة د/أنيس فريجة، ط/١، دار الثقافة، بيروت، سنة١٩٦٩م.

(٣) فشر: تاريخ أوربا ص٦٢.

أنحاء الشرق والشمال والغرب"(١)، أما ادوار عطية فيقول:"وفي الحقيقة لم يكن من وراء الفتوح إلا القليل من التنظيم،وتوالت بشكل ارتجالي"(٢).

وقد أخذ بآراء المستشرقين في ارتجالية الفتوحات كثير من المؤرخين العرب (٣).

إلا أن تلك الآراء تتعارض معارضة صريحة وواضحة مع ما جاء في المصادر الإسلامية الأصيلة، وذلك لما يلي:

أولاً: دل على وجود خطة منظمة للفتوحات، الأحاديث التي بشر فيها النبيﷺ بفتح بلاد فارس، والشام واليمن، فحين عرض النبيﷺ نفسه على بني شيبان- فصدقوا في ردهم- بشرهم بفتح بلاد فارس، وفي هجرته ﷺ إلى المدينة-وهو في أشد ساعات الخطر- وعد سراقة بن مالك سواري كسرى عندما لاحقه في الطريق، وبشرﷺ أصحابه-وهم في أشد حالات الضيق - في غزوة الخندق (سنة٥هـ/٦٢٧م) بفتح بلاد فارس والشام واليمن، وحينما وفد على النبيﷺ عدي بن حاتم أكد له بشارة فتح العراق، كما تنبأﷺ لأمِّ حَرَامٍ أنها ستركب البحر في الغزو(٤).

(١) ألفريد جُيوم :الإسلام ص٧٩.

(٢) ادوار عطية: العرب ص٣٣.

(٣) جرجي زيدان:تاريخ التمدن ج١ص ٧٥، مراجعة د/حسين مؤنس،دار الهلال، القاهرة،سنة١٩٦٨م ،د/عبدالشافي عبداللطيف:العالم الإسلامي ص٢١٥،ط/١، دار الوفاء،القاهرة، سنة١٩٨٤م، د/عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسي ص١٦٩، ط/٧، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، سنة١٩٨٢م، د/علي إبراهيم: التاريخ الإسلامي ص٢٢٣، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، (د.ت)، د/ محمد ياسين: الهجمات المغرضة ص١٠٧.

(٤) ابن حنبل: المسند ج٤ص٣٠٣،الحديث رقم١٨٧١٦، البخاري: الجامع ج٣ص ١٠٦٠،الحديث رقم٢٧٣٧،الكلاعي:الاكتفاء

ويضاف إلى تلك المبشرات قوله: ﷺ"عُصَيْبَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى أَوْ آلِ كِسْرَى"(١)، وقوله:"إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(٢)، كما بشرهم النبيﷺ بفتح مصر في قوله:"إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا"(٣)، وقد فتحت اليمن في عهدهﷺ،فلم يبق غير فتح تلك الأمصار التي بشرهم بها (٤)، وإذا أضفنا إلى ذلك قوله:" أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ"(٥)، تبين لنا أنه كان لدى المسلمين خطة واضحة المعالم، محددة الزمان، فما كان على أصحاب رسول اللهﷺ سوي تنفيذها.

ثانياً:يتضح التخطيط من خلال حرص الخلافة علي أرباك الدولتين وتشتيت قواهما العسكرية بدُخول البلاد من أكثر من جبهة، ففي العراق-على سبيل المثال- كانت خطة الصديق قائمة علي أن يبدأ خالد بن الوليد من الجنوب بفرج الأبَلَة، بينما يبدأ عياض بن غنم من الشمال من جهة دومة الجندل، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو الأمير علي صاحبة(٦).

ج١ص٢٣٩،الذهبي:تاريخ الإسلام ج١ص٣٧٧،ابن كثير:البداية ج٣ص١٤٢،ج٦ص ص١٩٥، ١٩٧،ج٧ص٦٩.

(١) مسلم :الصحيح ج٣ص ١٤٥٣، الحديث رقم١٨٢٢.

(٢) البخاري:الجامع الصحيح ج٣ص١١٠٢، الحديث رقم٢٨٦٤، مسلم :الصحيح ج٤ص٢٢٣٧، الحديث رقم ٢٩١٨.

(٣) ابن حنبل: المسند ج٥ص١٧٣، الحديث رقم٢١٥٦٠، مسلم:الصحيح ج٤ص ١٩٧٠، الحديث رقم٢٥٤٣.

(٤) د/جميل عبد الله: دواعي الفتوحات الإسلامية ص ص٢٥، ٢٦.

(٥) البخاري:الجامع الصحيح ج١ص٥٥، الحديث رقم١١٦.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٣٤٧.

في حين أرسل الصديق إلي بلاد الشام أربعة جيوش في وقت واحد إلي أماكن مختلفة، إذ وجهة أبو عبيدة بن الجراح لفتح مدينة حمص، وعمرو بن العاص لفتح فلسطين، وأرسل يزيد بن أبي سفيان لفتح البلقاء "دمشق حالياً"، بينما أرسل شرحبيل بن حسنة لفتح الأردن(١)، وكل ما سبق يؤكد وجود خطة إسلامية كانت تسير وفقها الفتوحات الإسلامية .

وأما تردد عمر في الانسياح في بلاد فارس وفي فتح مصر -إن صح-(٢) وغيرها من البلاد فلم يكن يعني عدم الرغبة في فتحها، وإنما بغية تثبيت الفتوحات في تلك الأمصار وتنظيم شئونها طبقاً لمنهج الإسلام، وتمكين الدعاة من تعريف أهل البلاد بالإسلام، واستنهاض هممهم ليكونوا جنوداً يدفعون عنه وينشرونه بين الأمصار الأخرى بدلاً من أن يكونوا شوكة في جنب المجاهدين، إذ أن الغرض من المعارك إزالة العقبات التي تعترض طريق انتشار الإسلام(٣).

ولذلك يقول ويلز: ثم راح أبوبكر يعمل على إخضاع العالم" طبقا لتلك الرسائل التي كتبها النبي من المدينة..إلى جميع ملوك العالم"(٤)، في حين يذكر جولد تسهير "أن الفتوحات الكبرى التي تمت بعد وفاته-أي النبي- بمعرفة الذين كانوا أكثر أصحابه إطلاعاً

(١) أبو يوسف: الخراج ص٣٩،دار المعرفة، بيروت(د.ت)،الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ص٣٨٧، ٣٩٠، ٤٠٦.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٤٨، تحقيق/محمد صبيح، دار التعاون،القاهرة، سنة١٩٧٤م.

(٣) د/جميل عبد الله: دواعي الفتوحات الإسلامية ص ٣٣.

(٤) ويلز:موجز تاريخ العالم ص٢٠٣، ترجمة/عبد العزيز توفيق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة(د.ت).

على نواياه ومشروعاته" (١)، وفيليب حتى- الذي أنكر وجود خطة -يقول:"وقع فتح مصر في إبان الحملات المنظمة ولم يكن من باب مجرد الغارة والغزو"(٢).

الافتراء الثالث:عدم سيطرة الخلافة على الفتوحات:

فقد اتخذ برنارد من صعوبة المواصلات ذريعة إلى القول بأن سيطرة المدينة على الفتوحات كانت" منذ البداية ضعيفة ومقتصرة على توجيه السياسة العامة"، وأن الخلفاء تركوا الأمور كلها ومعظم الأعمال التي لا مجال فيها لأخذ مشورتهم في أيدي القادة والحكام(٣).

وفي حقيقة الأمر لم تكن الخلافة الإسلامية بهذا الضعف الذي يحاول أن يصوره هذا المستشرق فالخليفة الأول أبو بكر الصديق نهي قواده عن الانتقال من مكان لآخر إلا بأذنه، كما عهد إلى قائده الأول خالد بن الوليد ألا يقتحم على الفرس ديارهم فأقام في الحيرة سنة - بعد فتحها دون جهاد-قال عنها" إنها لسنة كأنها سنة نساء"(٤)، وحين أراد خالد أن يستقل برأيه عن الخليفة عمر بن الخطاب في تأليف الناس بالأموال كان جزاؤه العزل عن القيادة العامة في بلاد الشام (٥).

(١) جولد تسهير: العقيدة والشريعة ص ٤٠.
(٢) فيليب حتى:تاريخ العرب ص٢١٩.
(٣) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص٧٠.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ٣٧٣.
(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٦ص٢٦٢، تحقيق/عمر بن غلامة، ط/٤، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٩٥م، ابن كثير: البداية ج٧ ص١١٧.

كما أوصي عمر بن الخطاب، قائده سعد بن أبي وقاص -وهو في طريقه إلى القادسية- بقوله:"اكتب إليّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها، وكيف تنزلون؟ وأين يكون منكم عدوكم؟ واجعلني بكتبك إلي كأني أنظر إليكم واجعلني من أمركم على الجلية"(١)،وكتب عمر إلي الأحنف بن قيس- عقب فتح خراسان- بقوله:" فلا تجوزن النهر- نهر جيحون- واقتصر على ما دونه"(٢)، فامتثل أمره.

الافتراء الرابع: رغبة القادة في أظهار مواهبهم العسكرية:

يدعى بعض المستشرقين أن أصحاب قرار الفتوحات هم القادة لا الخلفاء، فخالد بن الوليد بعد أن أنجز أوامر الخليفة بقتال المرتدين كما يقول برنارد:"قرر بمفردة الخطوة التالية التي تقضى بتنفيذ برنامج توسعي حربي وكانت معركة عقرباء التي جرت سنة ٦٣٣ في شرق نجد أول الفتوحات الإسلامية"،بينما بدأ عمرو بن العاص "غزو مصر طبقاً للرواية العربية بدون رضا الخليفة، وذلك بسبب استياء عمرو بن العاص من إهمال الخليفة له في سورية"(٣).

أما فيليب حتى فيدعى أن الخليفة عمر فكر قبل معركة القادسية في التوقف عن التوسع شرقاً والاكتفاء بما حققه القادة في سوريا" لأن بلاد فارس تختلف تاريخياً وحضارياً عن البلدان التي أحتلها العرب..ولكن كيف يستطيع الخليفة أن يحد من طموح قواده الذين أسكرهم النصر؟.. فلم يكن مناص من حتمية تطور الأمور وهو متابعة الفتوح"(٤).

(١) ابن كثير: البداية ج٧ ص ص٣٧، ٣٨.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ص١٦٨.
(٣) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص ص٧٠ ،٧٢.
(٤) فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص ٥٣.

ومثل هذه الآراء إنما تصدر عن جاهل بالتاريخ الإسلامي، وجغرافية الجزيرة العربية، ونُضيف إلى ما جاء في الرد على الافتراء السابق ما يلي:

أولاً:إن"عقرباء":منزل من أرض اليمامة، والتي كانت تقيم بها قبيلة بني حنيفة العربية التي أدعى بعض أفرادها النبوة، فكانت هزيمتهم بهذا الموضع، يضاف إلى ذلك أن خالداً لم يسر إليهم إلا بأمر الخليفة، وهو أيضاً الذي كتب إليه بالمسير لفتح العراق (١).

ثانياً: لما سار عمرو بن العاص إلى أجنادين، وكان بها الأرطبون -أدهى الروم وأبعدها غوراً- قال الخليفة عمر بن الخطاب:"قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج"(٢)، وكان من أثر انتصار عمرو على أرطبون أن فتحت كل من يافا ونابلس، وعسقلان وغزة والرملة وعكا وبيروت واللد والجبلة أبوابه للمسلمين بغير قتال، ولذلك توجهه عمرو إلى بيت المقدس (٣)، فهل كان عمر يهمل عمراً ويجهل قدره بعد ذلك؟.

وفيما يتعلق بخطة فتح مصر، فنترك الإجابة لبتلر الذي يقول- وهو أحد المستشرقين-: لما طلب عمرو من الخليفة أن يأذن له في فتح مصر" وعده أمير المؤمنين أن يفكر في الأمر..ثم عاد عمرو إلى قيصرية.. فبعث الخليفة وراءه بكتاب..يقول فيه :إنه قد رضي بغزو

(١) الواقدى: الردة ص ص١٧٣ وما بعدها، الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٣٤٧، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص ١٣٥، دار الفكر، بيروت(د.ت).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٦٠٥، ابن كثير: البداية ج٧ص٥٥.

(٣) د/حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج١ص ص١٨٨، ١٨٩.

مصر، وتقدم إليه أن يجعل الأمر سراً، وإن يسير بجنده إلى الجنوب سيراً حثيثاً"(١).

ثالثاً:يدحض زعم فيليب أن"أول ما عمل به -الخليفة- عمر أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر، من الليلة التي مات فيها أبو بكر"(٢).

الافتراء الخامس:الرغبة في المحافظة على وحدة العرب وإظهار قوتهم:

وقد قال بهذه الفرية عدد من المستشرقين منهم بتلر،وفلهوزن، وخلاصة قوليهما: إن أبا بكر الصديق وزعماء المسلمين بعد القضاء على حركة الردة رأوا "أن خير وسيلة لرأب الصدع هي التوسع نحو الخارج"، "وأنهم إذا شاءوا أن يحفظوا على الدولة تماسكها ويتموا عليها اتحادها فلا بد لهم من أن يبعثوا البعوث لغزو ما يليهم من البلاد"(٣).

أما لوبون فيقول:"لم يلبث أبو بكر أن رأى أن أحسن وسيلة لمعالجة انقسام العرب هو أن يوجه العرب إلى البلاد كيما يمارسوا عاداتهم في الحرب والقتال، وسار الخلفاء الذين أتوا بعده على هذه السياسية الرشيدة التي انتشر بها الإسلام"(٤).

وقد أخذ بآراء المستشرقين تلك بعض المؤرخين العرب (٥).

(١) بتلر : فتح العرب ص٢٢٧.
(٢) الطبري:تاريخ الرسل ج٣ص٤٤٤.
(٣) بتلر: فتح العرب ص١٨٥، يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص٢٣.
(٤) غوستاف لوبون:حضارة العرب ص١٣٩.
(٥) د/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ص١٧٦، د/عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي ص١٦٧، د/ناصر الدين سعيدوني:الفتوحات الإسلامية ج١ص٢٣٠، بحث نشر ضمن أبحاث تاريخ الجزيرة

ويدعى سيديو أن خلفاء النبيﷺ ساروا على"سياسته فرأوا أن أفضل وسيلة لإعلان شأن دينهم وإظهار قوة شعبهم العربي أن يناجزوا الأمم المجاورة" (١).

ولا تعوزنا الحجة في دحض هذه الخرافات والأوهام التي يتشدق بها هؤلاء المستشرقون لما يلي:

أولاً: لم تكن حركة الفتوحات الإسلامية وليدة عصر الصديق وإنما كانت استكمالاً لما بدأه النبيﷺ من أجل ذلك كان إصرار الصديق على إنفاذ بعث أسامة إلى أطراف الشام على الرغم من ردة العرب ومعارضة كبار الصحابة (٢).

ثانياً: لو كانت الفتوحات من أجل الحفاظ على وحدة العرب لما مُنِع من الاشتراك فيها المرتدين والذين لم يسمح لهم بالاشتراك في الجهاد إلا بعد أن قطعت الفتوحات شوطاً طويلاً، وآية ذلك أن أبا بكر كتب إلى خالد وإلى عياض -حين سيرهما إلى بلاد فارس-بقوله:"أن استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي. فلم يشهد الأيام مرتد"(٣)، وبمثل هذا الرأي كتب إلى قائده خالد بن سعيد بتيماء، وإلى أهل عمان(٤).

العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ط/١، مطابع جامعة الملك سعود، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(١) سيديو: تاريخ العرب ص١١٣.

(٢) الواقدي: الردة ص٨٨،ابن سعد: الطبقات ج٢ص٢٧١، ابن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٠.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٣٤٧، ابن كثير: البداية ج٧ص١١٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ ص٣٨٨، الكلاعي: الاكتفاء ج٣ ص١٣٨، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢ص٧١، ابن الأثير: الكامل ج٢ص٢٥٢.

وهذا يدل على أن الفتوحات منذ البداية اعتمدت على المسلمين الخُلص وهذا يتعارض مع فكرة رأب الصدع ، ومعالجة انقسام العرب والمحافظة على وحدتهم، إذ لو كان الأمر كذلك لأشترك فيها جميع العرب سواءً من أرتد منهم أم من ظل على دينه، بل كان من باب أولى أن يكون في مقدمة الجيوش التي توجهت إلى بلاد الفرس والروم، المرتدين لأنه لا يوجد ما يحول بينهم وبين العودة للردة، والفرصة أمامهم سانحة بعد تفرق المجاهدين على جبهات القتال،وبذلك تتقوض دعائم الدولة، وتنهار الوحدة، ولا تجد من يُدافع عنها.

ثالثاً:إن العرب لم تكن بهم قوة يظهرونها أمام الفرس أو الروم، فقد كانوا يخشونهم، ولذلك لما عرض الصديق على الصحابة فتح الشام كان جواب عبد الرحمن بن عوف" إنها الروم وبنو الأصفر حد حديد وركن شديد"(١)، وظل عمر بن الخطاب يستنفر الناس لحرب الفرس في أول خلافته أربعة أيام حتى استجاب لأمره أول رجل من المسلمين، فقد "كان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم"(٢)، كما استشعر عمر غم وحزن سعد بن أبي وقاص من استعدادات الفرس قبل القادسية فكتب إليه بقوله:"لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه.."(٣).

فأي قوة يتحدث عنها هؤلاء المستشرقون؟ وهذا هو حال العرب، فالعرب لم يقاتلوا الفرس أو الروم بعدد ولا عدة، وإنما قاتلوهم بالدين الذي بعثهم الله به.

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢ص٦٣.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٤٤٤.
(٣) ابن الأثير:الكامل ج٢ص٣٠٤، ابن كثير: البداية ج٧ص٣٨.

الافتراء السادس:إيجاد مجال لممارسة القبائل عاداتها في الغارات:

ويرى بعض المستشرقين أن السبب في توجيه الخلافة للمسلمين إلى خارج الجزيرة رغبتهم في إيجاد منافذ جديد تستطيع من خلالها القبائل العربية أن تمارس عاداتها في الإغارة على جيرانها، وتنفس فيها عن جبها للقتال، بعدما جعل الإسلام من المؤمنين أخوة ومن أصحاب هذا الافتراء ادوار عطية، وبتلر، وديورانت، وفلوتن، وفيليب حتى، و لوبون (١)، ومن أقوالهم في هذا الصدد.

يقول فيليب حتى:"إن الغزو بين القبائل والغزو- قديم العهد في القبائل البدوية- لم يبق أمراً ترضى عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح جماح القبائل المواتية للغزو والقتال فكان على أولى الأمر أن يواجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة"(٢)، في حين يقول بتلر:"كان حب القتال غريزة في العرب، وقد زادهم توقداً إيمانهم بأن عليهم واجباً دينياً يؤدونه"(٣)، بينما قال ديورانت:" كان العرب كما نعلم قوماً ألفوا الحروب فلبوا نداء أبي بكر"(٤).

وقد أخذ بهذا القول بعض المؤرخين من العرب والمسلمين(٥).

(١) ادوار عطية:العرب ص٣٤، بتلر:فتح العرب ص١٨٥، ديورانت:قصة الحضارة ج١٣ص٧١، فان فلوتن: السيادة العربية ص ص١٢، ١٣، ترجمة د/حسن إبراهيم وآخر، ط/٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة١٩٦٥م، فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص٤٤، لوبون:حضارة العرب ص١٣٩.

(٢) فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص ٤٤.

(٣) بتلر: فتح العرب ص١٨٥.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧١.

(٥) جرجي زيدان: تاريخ التمدن ج١ ص٧٥، د/عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ ص١٥، ط/٥، دار الطليعة، بيروت، سنة١٩٨٧م، د/ناصر الدين سعيدوني: الفتوحات ج١ص٢٣٠.

يبد أن هذا الري يجد من الشواهد ما يدحضه لأن المسلمين كانوا يبغضون القتال ولا أدل على كراهيتهم له من قوله:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(١) ،فضلا عن أن الإسلام يُحرم الاعتداء على الآخرين، قال سبحانه:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٢) .

يضاف إلى ذلك أنه لو كانت تلك النظرية سليمة لواجب ألا يكون هناك نقص في عدد الجنود على جبهات القتال،وكان يكفي لاستنفاذ طاقة العرب العسكرية وحبهم للقتال فتح جبهة واحدة لا جبهتين في وقت واحد واللجوء إلى سحب القوات من جبهة لتدعيم أخرى في الوقت الذي يُحظر فيه على القبائل التي ارتدت -كما سبق- المشاركة في الفتوحات(٣).

الافتراء السابع:القومية العربية:

يزعم أصحاب هذه النظرية أن باعث العرب على الخروج هو القومية العربية من أجل توسيع رقعة دولتهم، فيقول ادوار: إن الفتوح كانت"توسعاً للأمة العربية لا للإسلام"(٤)،ويدعى فيليب حتى أن العرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه، إنما كانوا مدفوعين بعامل قومي فالفوز الأول كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي"(٥)، ويزعم فلوتن أن العرب"جدوا في نشره-أي الدين- بدافع وطني أكثر منه ديني"(٦).

(١) سورة البقرة: الآية٢١٦.
(٢) سورة البقرة: الآية١٩٠.
(٣) د/ محمد ياسين: الهجمات المغرضة ص١٠٨.
(٤) ادوار عطية: العرب ص٣٣.
(٥) فيليب حتى:تاريخ العرب ص٢٠٢.
(٦) فان فلوتن: السيادة العربية ص ص١٢، ١٣.

وقد أخذ بآراء المستشرقين تلك بعض المؤرخين العرب(١).

بداية نقول:إنه لا يوجد في الإسلامية قومية أو عصبية، فقد حارب الإسلام منذ ظهوره النعرات القبيلة، وأقام مجتمعاً راسخ البنيان على أساس من الإخوة﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٢) ، فـ" لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"(٣)،فالقومية "دعوة جاهلية إلحادية تهدف إلى محاربة الإسلام والتخلص من أحكامه وتعاليمه..وقد أحدثها الغربيون من النصارى لمحاربة الإسلام والقضاء عليه في داره بزخرف من القول.. فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام واغتر بها كثير من الأغمار ومن قلدهم من الجاهل"(٤).

وإن ننسى فلا ننسى أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا شيئاً مذكورا، فأعزهم الله بالإسلام، فكانت فتوحاتهم فتوحاً للإسلام لا للعرب، ومن ثم رأينا عمر بن الخطاب يقول:" إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله"(٥).

الافتراء الثامن:احتلال البلاد:

يدعى فلوتن أن الغرض من الفتوحات ليس"العمل على نشر دعوة معينة، وإنما هو احتلال بقوة السيف"(٦)، ويقول

(١) د/حسن إبراهيم:تاريخ الإسلام ج١ص١٧٦، د/محمد عمارة: العرب والتحدي ص٥٤، دار الهلال، القاهرة، سنة١٩٨٢م.
(٢) سورة الحجرات: الآية١٠.
(٣) ابن حنبل:المسند ج٥ص٤١١، الحديث رقم٢٣٥٣٦.
(٤) دار الندوة العالمية:الموسوعة الميسرة في الأديان ج٢ص٩٩، مراجعة د/مانع بن حماد،نشر دار الندوة العالمية، (د.ت).
(٥) الحاكم:المستدرك ج١ص١٣٠، الحديث رقم٢٠٧.
(٦) فان فلوتن:السيادة العربية ص١٥.

بروكلمان:"لما تم لجند أبي بكر فتح جنوب العراق..تذكر المسلمون في حماسة شديدة الهدف الذي سبق للنبي أن عينه، وهو احتلال الأراضي المقدسة"(١).

يضاف إلى ذلك استخدم المستشرقون مصطلحات وليدة عصرهم للتعبير عن الفتوحات، فهي- في نظرهم-احتلال عسكري، واستعمار، وغزو، وفتح للعرب، الهدف منه أقامة إمبراطورية تفرض السيادة العربية(٢).

وسبب هذا الخطأ أن بعض المستشرقين نظروا إلى الفتوحات بمنظار القرن العشرين والتفاسير السائدة فيه (٣)، كما أن هذه المسميات هي ذاتها الأعمال التي كانت تمارسها دولهم على الأمم المقهورة، فلم تستطع أن تنهض من كبوتها كما نهض الإسلام بالبلاد المفتوحة.

وفي وقع الأمر كانت الفتوحات الإسلامية من أجل تحرير العباد من الظلم والاستبداد الواقع عليهم من الفرس والروم، بالإضافة إلى

(١) بروكلمان:تاريخ الشعوب الإسلامية ص٩٣.

(٢) وردت هذه المسميات على سبيل المثال في، أرنولد: الدعوة ص١٠٠، أنتوني نتيج: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام ص٧٢،ترجمة د/ رشدي البراوي، مكتبة الانجلو المصرية، سنة١٩٧٤م، بروكلمان: تاريخ الشعوب ص ص٩٣، ١٠٧، حوراني: تاريخ الشعوب ج١ص٣١، جيوم: الإسلام ص٨٠، ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧١، سيديو:تاريخ العرب ص١٤٣، فلوتن: السيادة العربية ص ١٥، فلهوزن: تاريخ الدولة ص٣١، فيليب حتى:تاريخ العرب ص٢٠٢، وصانعوا التاريخ ص ٥٣، لوبون:حضارة العرب ص١٣٩.

(٣) د/فاروق عمر:الاستشراق ص٨٢،ط/١،منشورات الأهلية،لبنان،سنة١٩٨٨م.

تحرير البلاد العربية في العراق والشام من نيران المحتلين،وكذلك بقية البلاد-فإنها وإن لم تكن عربية- فإنها كانت ترزح تحت قهر الدولتين (١)، ومن ثم رأينا ربْعِيَّ بن عامر يقول لرستم:"الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"(٢)، فضلاً عن أن العرب لم تكن لديهم قوة - كما سبق- للقيام بمثل هذا المزاعم السابقة.

ثالثاً: الباعث الاقتصادي:

بداية نقرر **أولاً**:إن من بين الدروس التي تعلمها الصحابة في جهادهم مع النبيﷺ استهداف القصد الديني المجرد من النظر إلى الغنيمة، وإنهم متى نظروا إليها وجعلوها ضمن أهدافهم حاقت بهم الهزيمة، ولهذا خاطبهم الله سبحانه في غزوة أحد(سنة٣هـ/٦٢٥م) بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) ، ولما قال أعرابيٌّ للنبيﷺ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ مَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(٤).

(١) د/سيدة كاشف: مصر الإسلامية ص٢٥، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، د/محمد عمارة: العرب والتحدي ص ص٥٨، ٥٩.

(٢) الطبري:تاريخ الرسل ج٣ص٥٢٠، ابن كثير:البداية ج٧ص٤٠.

(٣) سورة آل عمرن: الآية١٥٢.

(٤) البخاري: الجامع ج٣ص١١٣٧، الحديث رقم٢٩٥٨.

ثانياً: ينبغي أن نفرق بين ما كان دافعاً للغزو وبين ما كان نتيجة له، فالمسلمون لم يستهدفوا في حروبهم الغنائم لذاتها،ولكنها سيقت إليهم(١).

وعلى الرغم من ذلك يحاول بعض المستشرقين التأكيد على المكاسب المادية والغنائم باعتبارها الهدف الأوحد والأساسي وراء حركة الفتوحات وليس الحرص على نشر الإسلام والجهاد في سبيله، ومثل هذا الإجحاف "ينطبق على المسيحية ولا يعرفه الإسلام"(٢).

وفكرة ربط الفتوحات الإسلامية بالباعث الاقتصادي قد يظن البعض أنها وليدة العصر الحديث، وهو ظن في غير موضعه؛ إذ أنها وليدة عصر الفتوحات ذاته، يتضح ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً:قول ماهان-قبيل معركة اليرموك- لخالد بن الوليد:"قد علمت أن الذي أخرجكم من بلادكم غلاء السعر، وضيق الأمر بكم وإني قد رأيت أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير، وراحلة تحمل حملها من الطعام والكسوة والأدم فيرجعون بها إلى بلادكم وتعيشون بها أهاليكم سنتكم هذه فإذا كان قابل بعثتم إلينا فبعثنا إليكم بمثله"(٣).

ثانياً:قول كسرى- قبل معركة القادسية-:للوفد الذي بعثه إليه سعد بن أبي وقاص"إن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم"(٤).

(١) د/حمدي شاهين:الدولة الإسلامية ص ص٦٢، ٦٣، ط/١، القاهرة، سنة١٩٩٨م.

(٢) د/ شوقي أبو خليل: أضواء على مواقف المستشرقين ص٢٠٤.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢ص ص١٤٦، ١٤٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٤٩٩، ابن الأثير: الكامل ج٢ص٣٠٥.

ثالثاً: قول المقوقس-أثناء حصار حصن بابليون- لعبادة بن الصامت "ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم"(١).

فلو كانت الأموال والغنائم من مقاصد الفتوحات ما رفضها الفاتحون، وقد عرضت عليهم دون قتال، وعلى كل حال فيمكن تقسيم افتراءات المستشرقين في الباعث الاقتصادي على النحو التالي:

أ/: لماذا قبل العرب وغيرهم الدعوة الإسلامية؟.

يدعي بعض المستشرقين إن العرب ما دخول في الإسلام حباً فيه، وإنما لما سيعود عليهم من المنافع الاقتصادية، ومن هؤلاء جولد تسيهر الذي يقول:" وقد هش العرب للدين الجديد- أي الإسلام- ورحبوا به على اعتبار أنه ذريعة لحركة الفتح هذه التي كانت تدعوا إليها الضرورات الاقتصادية"(٢)، بينما يدعى جوزي أن الإسلام مسألة اقتصادية،و"أن القبائل العربية وسكان مكة والمدينة اقبلوا عليه ودخلوا فيه لأسباب غير دينية"، أما أهل البلاد المفتوحة فقد صاروا-كما يقول جوزي:"يدخلون في دين الله أفواجاً لاعن اعتقاد بصحة الدين الذي لم يكونوا يعرفون عنه ومنه إلا الشيء القليل بل عن رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد وحفظاً لمراكزهم القديمة وثرواتهم المجموعة في أجيال"(٣)، أما فلوتن فيدعى أن معظم دهاقين الفرس-أي رؤساء القرى والتاجر- فطنوا

(١) ابن عبد الحاكم: فتوح مصر ص٥٤،المقريزي:المواعظ والاعتبار ج٢ص٦٨، مكتبة الآداب،القاهرة، سنة ١٩٩٦م.

(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة ص١٣٧.

(٣) بندلي جوزي:من تاريخ الحركات الفكرية ص ص١٢، ١٣، ٣٦، ٤١.

منذ اللحظة الأولى إلى أن دخولهم في الإسلام يعفيهم من الجزية، ويحافظ على ممتلكاتهم بل ويجعلهم يقاسمون الفاتحين في الغنائم فسارعوا إلى الدخول فيه(١).

والرد على تلك الفرية أسهل ما يكون فرُب حق أبلج من حقائق الإسلام لا يطمع أعداء الدين في أكثر من استدراج المسلمين إلى الدفاع عنه، وذلك لما يلي:

أولاً:إن تلك الفرية لا يقول بها إلا من أضله الله على علم وختم على سمعه وبصرة، فالله سبحانه وتعالى شهد-وهو خير الشاهدين- لأصحاب النبيﷺ بالإيمان في آيات عديدة في كتابه الكريم منها قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾(٢) ، كما أن الإسلام لا يفتش عن النوايا بحسب المرء أن ينطق بشهادة التوحيد فيعصم بذلك دمه وماله وعرضه وحسابه على الله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾(٣) .

ثانياً:إن المال لم يكن من أهداف الجهاد في الإسلام،ولو كان عمر بن الخطاب وهو يجهز الجيوش يستهدف كنوز كسرى وقيصر ويسيل لعابه في أن يتقلب في مثل نعيميهما ويجلس على عرشيهما لما عادات إليها تلك الجيوش إلا بأثقال من الخيبة والهوان (٤).

(١) فان فلوتن:السيادة العربية ص ص ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة الفتح:الآية١٨.
(٣) سورة النساء:الآية٩٤.
(٤) د/ محمد سعيد البوطي: فقه السيرة ص٩٠، ط/١٦، دار السلام، القاهرة، سنة١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

ثالثاً:إن دخول الناس في الإسلام هو الغاية التي يسعى المسلمون إليها، لأن الله بعث محمداً ﷺ هادياً للناس كافّة ولم يبعثه جابياً لأموالهم، والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما ذكرناه سابقاً من فرح الصحابة وتكبيرهم لما أسلم بعض من في أيدهم من أسرى مصرحين عرضوا عليهم الإسلام، كذلك نجد خالد بن الوليد يصرخ في أهل الحيرة-حين قبلوا الجزية بقوله:"تبا لكم إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها"(١)، ويُبين لـ"جرجة"أن من دخل في الإسلام -من التابعين- بنية حقيقية لا يساوي الصحابة في الأجر فحسب بل ربما فاقهم فيه، ويعلل ذلك بقوله:"إنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج"(٢)، ولذلك يقول كاستري:"إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوماً صادقين ذوي دراية وذكاء"(٣).

ب/الفتوحات غارات هدفها النهب والسلب:

بدعى برنارد لويس أن أولى الحملات التي وجهت إلى الشمال لم تكن"سوى غارات غرضها النهب لا الفتح"(٤)، وهذا الافتراء قديم ذكره يوحنا النقيوسي في عدة مواضع وهو يتحدث عن فتح مصر(٥)،إذ لم يفرق بين النَهْبِ بمعنى: الغَنِيمة التي يحصل عليها

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ٣٦٢، ج٤ص١٠٦، ابن كثير: البداية ج٦ص ٣٤٦، ج٧ص١٠١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٣٩٩، ابن الجوزي:المنتظم ج٤ص١٢١.

(٣) هنري دي كاستري:الإسلام ص٣٤.

(٤) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص ص٦٩، ٧١.

(٥) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ص ص١٩٦، ١٩٩، ٢٠٦.

المجاهدون نتيجة انتصارهم، وبين النَّهْبُ بمعنى: الغارةُ والسَّلْبُ أي لا يَخْتَلِسُ شيئاً له قيمةٌ عاليةٌ(١).

ونضيف إلى ما سبق، ما ذكره سيديو وهو يتحدث عن فتح مدينة بصري-من أرض الشام-فيقول:"تبيح حقوقُ الحرب النهب للغالب، ولم يقع شيء من هذا بعد أن طلب الأهالي الأمان، فاكتفى الغالب بالجزية تاركاً لهم حريتهم الدينية"(٢).

فالفتوحات لم تكن حروب نهب واستغلال، وإنما كانت فتوح إيمان وتعمير،فقد وضع الإسلام للحروب قوانيناً تحكمها من بدء إعلانها حتى تضع أوزارها(٣)، فبعد فتح المدائن أقبل رجل بصندوق ممتلئ بالجوهر إلى صاحب الأقباض فقال هو والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه.فقالوا:هل أخذت منه شيئاً؟ فقال:والله لولا الله ما أتيتكم به.فقالوا:من أنت؟ فقال:والله لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه.فقال سعد: والله إن الجيش لذو أمانة"(٤)،فأين النهب والسلب؟ وهذا مثال من نماذج لا حصر لها.

ج/الحصول على ثروات البلاد وما يسبق ذلك من الفيء والغنائم:

يدعى عدد -غير قليل- من المستشرقين منهم بتلر، وبرنارد، وبروكمان، وجوزي، وجولد تسيهر، وديورانت، وسُورديل، وفشر،

(١) ابن منظور: لسان العرب م٦ص٤٥٥٣، مادة(ن هـ ب) تحقيق/عبد الله على وآخران، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
(٢) سيديو: تاريخ العرب العام ص ص١١٩، ١٤٣.
(٣) على عبداللاه: افتراءات وأباطيل ص٤١، مطبعة الصفا،أسيوط، سنة٢٠٠٧م.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ص١٩، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٦ص١٢.

وفلهوزن، وفيليب، ونتيج (١)، أن الفتوحات لم تكن موجهة نحو القيم والمثل السامية وحدها "لأن كنوز المدائن ودمشق والإسكندرية لم تسمح طبيعتها بإيجاد ميول للزهد والتقشف"(٢)، فقد "كانت بلاد فلسطين للعرب بلاداً موعودة ... تفيض لبناً وعسلاً"(٣)، وأما مصر فقد كانت بالنسبة للفاتحين...من وجهة اقتصادية أهراء للجزيرة العربية"(٤).

يضاف إلى ذلك أنه كان من بين أسباب تقدم الفتوحات وسرعتها وفرة الغنائم وكثرتها، فلما أصبحت ضئيلة بطُئ سير الفتوح (٥).

وقد أخذ بآراء المستشرقين في الدوافع الاقتصادية كثير من المؤرخين العرب (٦).

(١) بتلر: فتح العرب ص ص١٨٥، ١٨٦، برنارد: العرب ص ص٦٩، ٧١، بروكلمان:تاريخ الشعوب ص ص٩٧، ٩٩، جوزي:من تاريخ الحركات ص ٤٣، جولد تسيهر:العقيدة ص١٣٥، ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٣٧، سُورديل:الإسلام ص ١٩، فشر: تاريخ أوربا ص٦٣، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص٤٦، فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص ص٤٤، ٥٢، نتيج: العرب ص ص٦٩، ٧٦.

(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة ص١٣٥.

(٣) بتلر: فتح العرب ص١٨٥.

(٤) فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص٥٢.

(٥) بتلر:فتح العرب ص١٨٦،سُورديل:الإسلام ص١٩،فشر: تاريخ أوربا ص٦٣، فلهوزن:تاريخ الدولة العربية ص٤٦، فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص٤٤.

(٦) جرجي زيدان:تاريخ التمدن ج١ص٧٣،حامد عبد القادر:الإسلام ص٢٣٦، د/ حسن إبراهيم:تاريخ الإسلام ج١ص١٧٨،د/سيدة كاشف:مصر في فجر الإسلام ص٩، طبع الهيئة المصرية العامة

بداية نشير إلى أن هؤلاء المستشرقين يتحدثون عن الأهداف الحقيقة التي دفعت بلادهم لاحتلال واستعمار ديار الإسلام، فبتلر مثلاً استخدم نفس عبارة البابا أوربان الثاني حينما خطب في الناس يحثهم على الخروج في الحملات الصليبية ضد المسلمين إذ قال:"إن الأراضي التي ستذهبون إليها طيبة مباركة تفيض لبناً وعسلاً"(١).

أما فتوحات الإسلام فكانت موجهه نحو المثل العليا التي فتح بها قلوب الناس قبل بلادهم، ولذلك يقول فيشر:"ولولا ما سرى بين العرب من روحية متسامية عن مجرد الشهوة للحرب والغنيمة لما استطاعوا أن يظفروا برضي الشاميين والمصريين والفرس والبربرعن حكمهم"(٢).

وباعتراف كثير من المستشرقين أن الخلفاء الراشدين الذين كانت تفتح بأسمائهم البلاد-وغيرهم- لم يبحثوا عن النفائس والثراء ويتخلوا عن حياة الزهد والتقشف الذي كانوا عليه في حياة النبي(٣)ﷺ، ومات أعظم قائد في تاريخ الإسلام خالد بن الوليد وهو لا يملك من حطام الدنيا غير فرسه، وسيفه وغلامه فقط، فأين

للكتاب،القاهرة، سنة ١٩٩٤م، د/عبد العزيز الدورى:مقدمة في التاريخ ص١٤،د/عبد المنعم ماجد:التاريخ السياسي ص ص ١٧٠، ٢١٧، د/على إبراهيم: التاريخ الإسلامي ص٢٣٦، د/محمد عزب: القبائل العربية ص١٤٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة١٩٩٨م، د/ناصر الدين سعيدوني: الفتوحات الإسلامية ج١ص ص٢٢٧، ٢٢٨.

(١) د/ نعمان الطيب:الحروب الصليبية ص٤،مكتبة الاتحاد التعاوني، القاهرة(د.ت).

(٢) فشر: تاريخ أوربا ص ٦٣.

(٣) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧٥، سيديو: تاريخ العرب العام ص ١٠٨، لوبون:حضارة العرب ص١٣٧.

الغنائم؟!!(١)، وها هم رسل المقوقس، يصفون الفاتحين-بعد بضع سنين من بدأ الفتوحات- بقولهم:"رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم"(٢)، فأين المبادئ التي تخلى عنها الفاتحون؟.

ولذلك يقول ديورانت: كان في وسع العرب "أن يحاربوا وبطونهم خاوية، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم، ولكنهم لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحشين"(٣).

ويعلل سيديو بُطأ الفتوح بالمشاكل الداخلية للدولة الإسلامية- وقد أصاب- فيقول إن:"العرب بذلوا في حروبهم الداخلية في منتصف القرن السابع من الهمة والنشاط ما كانوا ينالون به نصراً مُؤزراً لو بذلوه في الخارج"(٤).

ولا ننسى أن نشير إلى أن المقصود من إباحة الغنائم ليس ذات المال، ولا الرغبة في جمعة وتكثيره، وإنما المقصود انتزاع الوسيلة الأساسية التي يعتمد عليها أعداء الإسلام في إعلان الحرب على دين الله لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ إن استطاعوا (٥) ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ

(١) د/ شوقي أبو خليل: أضواء على مواقف المستشرقين ص٢٠٥.
(٢) ابن عبد الحكم:فتوح مصر.ص ٥٣،المقريزي: المواعظ ج٢ص ص٦٦، ٦٧.
(٣) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧٢.
(٤) سيديو: تاريخ العرب العام ص ص١١٩، ١٤٣.
(٥) د/أمير عبد العزيز: افتراءات على الإسلام ص٢٣.

الْكَافِرُونَ﴾(١)، لذلك نجد الله سبحانه وتعالى يُبين لنا خطورة المال في أيدي الظالمين والمعتدين فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (٢).

وقد بقى العرب قبل الإسلام دهوراً عديدة لا يبرحون أماكنهم ولا يعلم أحد عنهم شيئاً، ولا يسمع لهم صوت، ولا تحس منهم حركة، فما الذي حملهم على التحول من صحرائهم إلى غيرها من البلاد المجاورة؟ أهو الجوع؟ أم أنهم صار أئمة للهدى يرون ظمأ المشارق والمغارب بالمعرفة واليقين، ويدعون الناس إلى الإيمان برب العالمين؟(٣)، وإذا كانت الغنائم أغرت الفاتحين، فما هي الأسباب التي جعلتهم يقاتلون المرتدين ومانعي الزكاة في البادية الفقيرة والصحراء الجرداء؟ أهي الأطماع الاقتصادية أم الدين الذي أمروا بتبليغه؟(٤).

يضاف إلى ذلك أن العرب فتحوا بلاد الفرس والروم في وقت واحد وقد كان يكفي لسد جوعهم أن يفتحوا جبهة واحدة للقتال ولو فعلو ما تحركت الأخرى ولسرها أن ترى مصرع عدوها،وكان يكفيهم سواد العراق وحده، أو فلسطين، أو الشام أو مصر لينعموا بما فتحوا، ولكنهم انطلقوا إلى ما وراء ذلك من البلاد،"إن الإسلام الثري بالقيم الفكرية والروحية والمثل السياسية والاقتصادية هو الذي فتح

(١) سورة الصف: الآية٨.
(٢) سورة الأنفال: الآية٣٦.
(٣) توماس كارلايل: الأبطال ص٨٢، محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة ص١٢٣.
(٤) أحمد جمال:مفتريات على الإسلام ص٦٤، د/أحمد شلبي: موسوعة التاريخ ج١ص٤٧١، ط/١٣، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، سنة١٩٨٩م.

الأقطار لا العرب الجياع"،وإذا كان العرب يقاتلون للحصول على ثمرات الدنيا فهل كان أعداؤهم يقاتلون العرب للحصول على طيبات الآخرة؟ ولماذا لم يقاتلوا كالعرب في الاحتفاظ بما في أيديهم؟ ولماذا لم يثأروا لأنفسهم بعد بضع سنين أو حتى ثلاثمائة؟(١)،كما كان يحدث في صراع الدولتين معاً من أجل البقاء في مستعمراتهم في الشام والعراق ومصر.

وأخيراً:فإن مما يؤكد أن ثروات البلاد لم تكن محل اهتمام من الفاتحين أن خالداً بعث الهدايا التي أهداها له أهل الحيرة إلى أبي بكر فكتب إليه بقوله:"إن احسب لهم هديتهم من الجزاء إلا أن تكون من الجزاء وخذ بقية ما عليهم"(٢)، أضف إلى ذلك قول فلوتن:"إن العرب في ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم ممن دخلوا في الإسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم"(٣)، إذ لو كانت الغنائم هدفاً للفاتحين ما قبلوا أن يشاركهم فيها غيرهم، وما ردوها الهدية على أصحابها، واحتسبوها لهم من الجزية المفروضة عليهم.

د/ الجزية:

يدعى بعض المستشرقين عدم وجود نظام ثابت لجمع الخراج والجزية، وأن النظام الاقتصادي كان يعتريه القصور فيقول جوزي:"إن نظام الضرائب الذي وضع أساسة المصلح العربي مع ما ادخله عليه خلفاؤه من التغيرات والزيادات ولا سيما عمر بن الخطاب مؤسس الإمبراطورية العربية الحقيقي ووضع دستورها

(١) د/ شوقي أبو خليل: أضواء ص٢٠٥، محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة ص ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٣٦٢.

(٣) فان فلوتن:السيادة العربية والشيعة ص ص٣٨، ٣٩.

ونظامها..كان عبئاً ثقيلاً على عاتق الأمم المغلوبة"(١)، ويقول فلوتن:" إن عمر بن الخطاب لم يضع نظاماً ثابتاً لتلك الضرائب"، ومن ثم كان في وسع الولاة مضاعفتها متى شأوا(٢).

أضف إلى ذلك ما كان يتحمله أصحاب الجزية من الذل والإهانات يوم كانوا يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون(٣).

أما جيوم فيقول:"وكان على غير المسلمين أن يدفعوا الجزية، وكان العجز عن دفعها يؤدي بطبيعة الحال إلى زيادة من يدخلون في الإسلام"(٤)، أي دين هذا الذي يتركه صاحبة هرباً من دراهم معدودة يؤديها كل عام؟ وهل هانت العقائد على الناس إلى هذا الحد؟(٥).

أما عن الهدف من الجزية فيقول جولد تسيهر:" كانوا في مقابل دفع الجزية يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية من غير إزعاج لهم"(٦).

ولا نعجب من افتراءات المستشرقين تلك، فقد سبقهم إليها يوحنا النقيوسي الذي عقب على فتح مصر بقوله:"واستولى المسلمون على كل بلاد مصر.. وضاعفوا عليهم فريضة الضرائب ثلاثة أمثال"(٧).

ويتضح من هذه الآراء أنها تدور حول إنكار نبوة النبيﷺ، وعدم وجود نظام ثابت لجمع الخراج والجزية، وأنهما كانا أضعاف

(١) بندلي جوزي:من تاريخ الحركات الفكرية ص ص٤١، ٤٢.
(٢) فان فلوتن:السيادة العربية ص ص ٢٦، ٢٧.
(٣) بندلى جوزي:من تاريخ الحركات الفكرية ص ص٤١، ٤٢، فلوتن:السيادة العربية ص ص ٣٣، ٣٤.
(٤) ألفريد جيوم: الإسلام ص٨٠.
(٥) د/عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي ص٣٨١.
(٦) جولد تسيهر: العقيدة ص٤٦.
(٧) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ص ٢١٢.

ما يُأخذ من أهل البلاد في السابق، فضلاً عن الإهانات التي كان يتعرض لها أهل البلاد عند تحصيلهما، فكان البديل قبول الإسلام والدخول فيه، ولا يخفى على المنصف فساد هذه الآراء، وما فيها من إجحاف لما يلي:

أولاً:إن النبيﷺلم يكن مصلحاً اجتماعياً، وإنما كان رسولاً نبياً يوحى إليه، قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾(١) ،ولم يقبضه الله حتى أنزل عليه قوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(٢) ، فعمر بن الخطاب أو غيره لا يملك إلا الأتباع لا الابتداع في كافّة أمور الدين والدنيا، ولذلك قال أبو بكر في أول خطبة له:"إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني"(٣)، وكذلك كان عمر شديد التمسك بالسنة يحذر الابتداع، فإذا"جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ فَقَالَ:إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺيُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ"(٤)، فكيف يُعدل في تشريع وضعه النبيﷺ؟! أو يضع تشريعاً لم يضعه النبيﷺ؟!!.

ثانياً:إن الجزية بصفة عامة كانت يسيرة القيمة على قدر الطاقة فقد تراوحت بين٤٨ درهماً في السنة على الأغنياء، و٢٤ درهماً على المتوسطين،و١٢ درهماً على القادرين على الكسب من الفقراء(٥)، وقد نصت على ذلك المعاهدات التي وقعها المسلمون مع أهالي تلك البلاد، ففي معاهدة أصبهان"إنكم آمنون ما أديتم الجزية

(١) سورة الفتح: الآية٢٩.
(٢) سورة المائدة: الآية٣.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٣٠ص٣٠٢.
(٤) البخاري: الجامع ج٢ص٥٧٩، الحديث رقم١٥٢٠.
(٥) د/عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي ص ص٣٧٩، ٣٨٠.

وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدونها"(١)،ومن ثم يقول فلهوزن:"إن الجزية تدفع بمقدار معلوم بحسب قاعدة يُنص عليها في كتاب الصلح"(٢).

ثالثاً:يضاف إلى ذلك إعفاء الشيوخ والنساء والقساوسة والرهبان، وأصحاب الأمراض الذين لا يرجى شفائهم والفقراء والمسكين ومن لم يبلغ الحلم من الجزية(٣)، وقد نصت على هذه الإعفاءات بعض المعاهدات، كما جاء في معاهدة أهل أذربيجان"أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس في يديه شيء من الدنيا ولا متعبد متخل ليس في يديه من الدنيا شيء"، فضلاً عن أن الجزية كانت تسقط عمن استعان به المسلمون في حروبهم ففي معاهدة أهل جرجان"ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه"(٤)، وقد كان هؤلاء وغيرهم، كما يقول ترتون:"يؤثرون الخدمة الحربية على دفع الجزية"(٥).

رابعاً:كانت الضرائب لا تأخذ من التجار إلا مرة واحدة في العام ويتسلمون براءة- كتاباً- بما أخذ منهم، ولا تأخذ ممن قل رأس ماله عن عشرة دنانير(٦)،ويذكر يعقوب نخلة أن عمراً جبا خراج مصر فبلغ في السنة"اثنتي عشر مليوناً من الدنانير مع أن الذي كان يجبيه

(١) يمكن مطالعة نصوص هذه المعاهدة وغيرها في الطبري: تاريخ الرسل ج٣ ص ص٣٦٤، ٦٠٩، ج٤ص ص١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٥.

(٢) يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص٢٨.

(٣) أبويوسف: الخراج ص١٢٢،أرنولد:الدعوة ص٧٨،ترتون:أهل الذمة ص٢٣٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ص ص١٥٢، ١٥٥.

(٥) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص٢١٥.

(٦) د/سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام ص٥٦.

المقوقس في أيام الروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليوناً، وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو... راحة لم يروها منذ أزمان"(١).

وأخيراً:إن خلفاء الإسلام كانوا يراجعون عمالهم في الأموال التي يرفعونها إليهم ويحثونهم على الرفق بأهل البلاد(٢)،وكان أمير المؤمنين عمر يقول لأهل الأمصار:"إني لم أبعث عمالي عليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا من أموالكم، ولكني إنما أبعثهم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به غير ذلك فليرفعه إلي"(٣).

وعلى الرغم من أن المسلمين حافظوا على طُرق الروم في تدوين دواوينهم، وجمع خراجهم إلا أنها كانوا" أخف على الناس وأقل إحراجاً لهم"، ويقر فيليب حتى"بأن الجزية التي فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة، كانت أقل مما كان يفرض عليهم في ظل الحكومات السابقة"(٤)، والتي بلغت جزيتها"سبعة أمثال الجزية الإسلامية"(٥).

وفيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة، فينبغي أن نشير إلى أن الجزية لم تكن لإكراه الناس على الإسلام،وأن عدم أدائهم لها يؤدي إلى التضييق عليهم في شعائرهم، كما لم تكن وسيلة لإذلال أهل البلاد ولا ابتزازاً لأموالهم، وإنما كانت علامة على التسليم وعدم المقاومة، وفي مقابل أدائها يتم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية والدفاع

(١) تاريخ الأمة القبطية ص٥٧، تقديم د/جودت جبره، ط/٢، القاهرة، سنة ٢٠٠٠م.
(٢) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص١٥٩.
(٣) أبو يوسف: الخراج ص ص٣٧، ١١٥.
(٤) بتلر: فتح العرب لمصر ص٤٦٦، فيليب حتى:تاريخ العرب ص١٩٩.
(٥) أحمد جمال:مفتريات على الإسلام ص٥٨.

عنهم،وتمتعهم بالحرية الدينية، سواءً أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم (١)، وقد نصت بعض المعاهدات على هذا الشرط، ففي معاهدة أهل الحيرة يقول خالد:"وعلى المنعة فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم"(٢).

ولذلك يقول لوبون كان أهل البلاد يؤدون:"في مقابل حمايتها، جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب"(٣)، وتقول لورا فيشيا:" كان العرب المنتصرون مستعدين دائماً- حتى وهم في أوج قوتهم وانتصارهم- لأن يقولون لأعدائهم ألقوا السلاح وادفعوا جزية يسيرة نُسبغ عليكم حماية كاملة أو اتخذوا الإسلام ديناً وادخلوا في ملتنا تتمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن"(٤).

فلا عجب أذن أن نرى أبا عبيدة يأمر بردّ ما جُبِي من الجزية والخراج لأهل الشام ويقول لهم:" إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع-من الروم- وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم،ونحن لكم على الشرط،وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"،فقالوا للمسلمين: "ردكم الله علينا، ونصركم عليهم-أي على الروم- فلو كانوا هم، لم يردوا علينا شيئاً، وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً"(٥)، ويعقب أرنولد على هذه الحادثة بقوله:" وبذلك

(١) د/عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي ص٣٧٩.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص٣٦٤.
(٣) غوستاف لوبون:حضارة العرب ص١٣٧.
(٤) لورا فيشيا فاغليرى: دفاع عن الإسلام ص٣٢.
(٥) ابو يوسف: الخراج ص١٣٩، الكلاعى: الاكتفاء ج٣ص٢١٩.

ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين(١).

ولم يقف الأمر عند رد الجزية، بل نجد عمرو بن العاص يُعوض أهل الإسكندرية عما حل بهم من النهب والتخريب على أيدي الروم حين أغاروا عليهم في(سنة٢٥هـ/٦٤٥م)،وفي ذلك يقول بتلر:"أمر بتعويض القبط مما فقدوه..فألزم نفسه في صراحة بأن يعوضهم عما لحق بهم"(٢).

وأخيراً:لو كانت الأموال هدفاً للفاتحين ما حرصوا على تأمين الحياة الكريمة لغيرهم،فالخليفة عمر لم يكتف بإسقاط الجزية عن شيخ ذمي، وإنما فرض له ما يكفيه من بيت المال، وقال للخازن:"انظر هذا وضربائه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم"(٣).

ويُبين أرنولد أن إقبال الناس على الإسلام لم يكن هروباً من الجزية أو عجزاً عن أدائها، فيقول:"هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم.. ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلاً من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنوياً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية، وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٧٩.
(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ص٤٩٩.
(٣) ابو يوسف: الخراج ص١٢٦.

أغراء مادي للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام"(١).

كما أن الإساءة إلى أهل الذمة تتعارض مع سماحة وتعاليم الإسلام ومنها قوله ﷺ:"مَنْ ظَلَمَ مُعَاهدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِه أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٢)، ومن ثم لا يجد جولد تسهير مناصاً من أن يقول:"فظلم أهل الذمة...كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة "(٣)، بينما يقول أرنولد:"أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة بوجه خاص فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة، ولا ينزلوا بهم عقاباً جسمانياً إذا لم يؤدوا الجزية"(٤).

على أن الأموال المجموعة من الأمصار لم تأخذ طريقها إلى خزائن وجيوب الخلفاء والأمراء، وإنما كانت كما يقول سيديو:" ينفق معظمها في الأعمال النافعة للبلاد"(٥)، ومنها كما يقول ترتون:" مد العرب يد المساعدة للنساطرة في تجديد كنائسهم القديمة"(٦)، فهل مازال العرب بعد ذلك طلاب مال؟ وهم الذين يساعدون أهل البلاد في تعمير بيعهم وكنائسهم، وبأموال المسلمين من الخراج والجزية؟! ولذلك يقول ليدل هارت:''إن العرب المسلمين يعدون واضعي الأسس

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ص٧٧، ٧٨.

(٢) أبو داود:سنن أبي داود ج٣ص١٧٠،الحديث رقم٣٠٥٢، دار الفكر(د.ت).

(٣) جولد تسهير: العقيدة والشريعة ص ٤٦.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩.

(٥) سيديو:

والقواعد الأخلاقية التي يجب أن يتبعها الأطراف المتنازعة أثناء الحرب"(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن ما ورد من نصوص في بعض المصادر الإسلامية فيها حث على الغنائم فمحمول علي تشجيع المسلمين على الحرب والقتال ليس إلاّ فأبو بكر حضّ المسلمين على الجهاد ثم قرر أن أموال الغنيمة هي جائز وإنعام(٢)، و يوصى عمر بن الخطاب قوادة بالحرص على سلامة المسلمين فيقول: للنعمان بن مقرن إن "رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائه ألف دينار"، وكتب إلى معاوية بن أبى سفيان بقوله:"تالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم"(٣).

وانظر معي في رد خالد بن الوليد -الاستفزازي-على ماهان قائد الروم- في الحوار الذي دار بينهما - قبل معركة اليرموك:"ما أخرجنا من بلادنا الجوع ولا ضيق الأمر ولكنا معشر العرب نشرب الدماء فحدثنا أن لا دماء أحلا من دماء الروم فأقبلنا نهريق دماءكم ونشربها" (٤)، فهل يحملنا هذا الرد على القول بأن العرب كانوا مصاصي دماء؟ كما حملنا ذكرهم للغنائم على القول بأن الذي أخرجهم من ديارهم الجوع وضيق المعايش؟!!!.

رابعاً:الباعث الاجتماعي:

يدعي بعض المستشرقين أن جدب بلاد العرب،وازدحامها بالسكان دفع أهلها للقيام بهجرات لاحتلال الأقاليم الأعظم ثراءً وخصباً وممن قال بهذا القول:ادوار،وأرنولد، وبرنارد،وجوزي،

(١) نقلاً عن د/فاروق عمر: الاستشراق والتاريخ ص٨٢.
(٢) د/ محمد ياسين: الهجمات المغرضة ص١١٦.
(٣) الطبري:تاريخ الرسل ج٣ص ص٢٥٩، ٣٤٧.
(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢ص ص١٤٦، ١٤٧.

وجولد تسيهر، وديورانت،وزيغريد،وفيليب،ونتيج(١)، ومن أقوالهم في هذا الإجحاف.

يقول برنارد:"كانت الفتوحات العظيمة في الأساس توسعاً لا للإسلام بل للأمة العربية التي دفعها اشتداد ازدحام السكان في موطنها الأصلي إلى أن تبحث عن مخرج في البلاد المجاورة، وهي أي الفتوحات واحدة من سلسلة الهجرات التي حملت الساميين مرة أخري إلى الهلال الخصيب وما وراءه" (٢)، بينما يعتبر أرنولد- على الرغم من اعتداله- "توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً"(٣)، أما ديورانت فيقول:"ما كاد الأمر يستتب للمسلمين في بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا يهاجرون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق"(٤).

بيد أنه لا يمكن التسليم بهذه الآراء لما يلي :

أولاً: إن اختلاف طبيعة المناخ في البلاد المفتوحة لا يوافق طباع العرب، ولذلك بدا أثره واضحاً على أبدانهم وألوانهم خلال بضع سنين من بداية الفتوحات، ومن ثم رأينا عمر بن الخطاب يكتب إلى

(١) ادوار عطية:العرب ص ص٣٢ ،٣٣،أرنولد:الدعوة الإسلامية ص ٦٤، برنارد لويس:العرب ص ٧٥، جوزي:من تاريخ الحركات ص١٣،جولد تسيهر:العقيدة ص١٣٧، ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧٦، زيغريد هونكه: شمس العرب ص ٣٥٥، فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص٥٩، نتيج: العرب ص٦٩.

(٢) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص ٧٥.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلامية ص ٦٤.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧٦.

سعد بن أبي وقاص بقوله:"إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان رائداً وحذيفة فليرتادا منزلاً برياً بحرياً"(١).

ثانياً:لا يوجد دليل على أن حركة الفتوحات سببها الجفاف أو الجوع، كما أن العرب جميعاً لم يكونوا في ضيق من العيش أو في الصحارى يعانون من القحط والجفاف(٢)، وإذا كان الجدب والقحط سبب هجرة قبائل الحجاز ونجد فما هي أسباب هجرة عرب اليمن السعيدة؟.

ثالثاً:أبطل المؤرخ فرانسيسكو جبرائيل هذه النظرية القائلة بالضغط السكاني لأنه لا يوجد دليل على الزيادة السكانية منذ ذلك التاريخ، وبعد مجيء الإسلام، بل إن العرب الفاتحين طوال فترات فتوحاتهم لم يفرحوا أو يسروا بالسكن في المناطق كثيرة السكان، وحتى خلافة عمر ظلت سياسة الحكومة ألاّ تسمح للعرب بالإقامة في البلاد المفتوحة، وطبقاً لقول جبرائيل:"إن بين الصحراء برمالها والعرب محبة قديمة استمرت حتى مع العهد الأموي لدرجة أن خلفاء بني أمية كانوا يفضلون بناء قصورهم في الصحراء والبادية، وكانوا يقضون فيها كثيراً من أوقاتهم"(٣) .

رابعاً: انعدام الأدلة القاطعة، وقلة المعلومات المتعلقة بتأثير السكان وطبيعة المناخ، وعلاقة البادية بالأراضي الزراعية والبدو

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ص٤١، ابن الجوزي:المنتظم ج٤ص٢٢٢.

(٢) د/السيد عبد العزيزسالم :تاريخ الدولة العربية ص٤٥٥، دار النهضة العربية، بيروت(د.ت)، د/عبد المنعم ماجد:التاريخ السياسي ص١٦٥.

(٣) نقلاً عن د/ محمد ياسين: الهجمات المغرضة ص١١٥.

بالفلاحين،ولا ننسى أن البدو كانوا يبغضون العمل بالزراعة وينفرون منه(١).

وأخيراً: إن تحركات القبائل بعد الفتح كانت انتقال من مكان للآخر في ظل الدولة الإسلامية لا هجرة من مكان لأخر.

وبعد العرض السابق لآراء المستشرقين لبواعث الفتوحات الإسلامية، ودحض ما جاء فيها من إجحاف، نؤكد على أن الباعث الأول لها كان الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام، وهو ما أعترف به بعض المستشرقين وعلى رأسهم جبرائيل، وكما قال":إن الدوافع والأهداف الأخرى كانت دوافع وأهداف ثانوية"(٢).

(١) البخاري:الجامع الصحيح ج٢ص٨٢٦، الحديث رقم٢٢٢١، تحقيق د/ مصطفي ديب البغا، ط/٣، دار ابن كثير، بيروت، سنة ١٩٨٧م
د/ عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ ص ص١٤، ١٥.
(٢) نقلاً عن د/ محمد ياسين: الهجمات المغرضة ص١١٦.

المبحث الثاني
العوامل التي ساعدت على سرعة الفتوحات

تظافرت عدة عوامل أدت إلى سرعة الفتوحات في البلدان المفتوحة يأتي في مقدمتها:يقين المسلمين بصدق وعد الله لهم بالتمكين في الأرض، وبشارة النبيﷺ لهم بفتح بلاد كسرى وقيصر، ولذلك عندما وصلوا إلى المدائن ولاح لهم في جوف الليل القصرالأبيض وهو قصر الملك وكان أول من رآه من المسلمين ضرار بن الخطاب فقال:" الله أكبر أبيض كسرى،هذا ما وعدنا الله ورسوله"،ونظر الناس إليه فتابعوا التكبير إلى الصبح(١)، فقويت قلوبهم وعظمت همتهم وجدوا في الفتوحات(٢).

وفي اليرموك يقول رجل لأبي عبيدة :"إني قد أردت أن أقضي شأني فهل لك إلى رسول الله ﷺ حاجة؟ فقال أبو عبيدة: نعم تقرئه مني السلام وتخبره أنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً"(٣)، ولذلك كَانَ أبو هُرَيْرَةَ يَقُولُ: " حِينَ فُتِحَتْ هَذِهِ الْأَمْصَارُ فِي زَمَانِ عُمَرَ وَزَمَانِ عُثْمَانَ وَمَا بَعْدَهُ، افْتَتِحُوا مَا بَدَا لَكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ"(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ص٨، ابن الأثير: الكامل ج٢ص٣٣٥، ابن كثير: البداية ج٧ص٦٥.

(٢) أحمد جمال:مفتريات ص١٥٠، محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة ص٥٤.

(٣) ابن عساكر:تاريخ دمشق ج٢ص١٥١.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية م٢ص٢١٩، الكلاعي: الاكتفاء ج٢ص١٠٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٢ص٢٨٦.

يضاف إلى ذلك التزام المسلمين بالدين عقيدة وشريعة وتطبيقاً لأحكامه على الراعي قبل الراعية فلا فرق بين جندي وأمير(١)،"مما جعل للجيوش الإسلامية ميزة على سائر الجيوش في طول التاريخ وعرضه" (٢)،فضلاً عن التخطيط الجيد للمعارك ومباغتة العدو وتوفر القيادة الكفء،بالإضافة إلى بسالة المقاتلين وشجاعتهم، وحرصهم على الشهادة لا على البقاء، واحترامهم لعهودهم ووفائهم بها (٣).

ولذلك تقول زيغريد هونكه:"ولعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم،حتى إن الملك الفارس"كيروس" قال:" إن المنتصرين لا يأتون كمخربين" فما يدّعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة"(٤).

وعلى الرغم من ذلك نجد كثيراً من المستشرقين لدى تعرضهم لأسباب سرعة الفتوحات الإسلامية يجحفون ويبالغون ويبرهنون على أن نصر المسلمين يرجع إلى عدة أمور منها:

أولاً:ضعف الدولتين:

وفي محاولة لتجريد المسلمين من كل فضل في الانتصارات، وكأنها قدمت لهم على طبق من فضة أو ذهب دون مشقة أو

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٥٣، ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ٢٦٥.

(٢) فشر: تاريخ أوربا ص ٦٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ٤٤٨، ج٤ ص ص٩٠، ١٨٠، ١٨١، جرجي زيدان: تاريخ التمدن ص ص٧٣، ٧٨، د/حلمي صابر: حياة الصحابة ص٦٠، د/السيد يونس:الفتوحات ص ٤٨.

(٤) زيغريد هونكه: شمس العرب ص ص٣٥٧، ٣٥٨.

تعب(١)، بالغ المستشرقون في التركيز على ضعف دولتي الفرس والروم من جرّاء الحروب المتواصلة بينهما، بالإضافة إلى الأوبئة والطاعون اللذين انتشرا في البلاد، وجعلوا هذا الضعف من أهم الأسباب التي أدت إلى انتصارات المسلمين، ومن هؤلاء المستشرقين ادوار عطية، وأنتوني نتيج،وبتلر،وبروكلمان،وبرنارد لويس، وحوراني، وديورانت، وسيديو، وفيليب حتى، ولوبون(٢)، ومن تلك الأقوال في هذه الفرية.

يقول ديورانت:"إن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب، وما حل بكاتيهما من الدمار على يد الأخرى، فكان ضعفهما مغرياً للعرب على غزو بلادهما"(٣)، أما حوراني فيقول:"أضعفت الأوبئة والطاعون والحروب الطويلة كلاً من الإمبراطورية الساسانية والبيزنطية"(٤).

وقد أخذا بهذه الآراء عدد غير قليل من الباحثين المسلمين(٥).

(١) د/جميل عبدالله: دواعي الفتوحات ص ٧٣.

(٢) ادوار عطية: العرب ص٣٤، أنتوني نتيج: العرب ص٥٢، بتلر: فتح العرب ص١٨٦، بروكلمان:تاريخ الشعوب ص٩٠، برنارد لويس: العرب في التاريخ ص٦٩،حوراني: تاريخ الشعوب ج١ص٥٣، ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ ص٧١، سيديو: تاريخ العرب ص١١٦، فيليب حتى: تاريخ العرب ص١٩٩، وصانعوا التاريخ ص٥٣، ولوبون:حضارة العرب ص١٣١.

(٣) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧١.

(٤) حوراني: تاريخ الشعوب ج١ص٥٣.

(٥) منهم د/أحمد شلبي:موسوعة التاريخ ج١ص٥٨٧، جرجي زيدان:تاريخ التمدن ج١ص٧٠،حامد عبد القادر: الإسلام ص٢٣٦، د/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ص ص١٧٦، ١٧٧، ١٨٣، د/السيد عبد العزيز سالم :تاريخ الدولة العربية ص٤٦٩، السيد أمير:روح الإسلام ج٢ص٩٣،د/عبد المقصود نصار:أولئك هم

ولا نعدم الحجة في الرد على هذا الإجحاف، ورد الأمور إلى نصابها الصحيح فلم تكن الدولتين بهذا الضعف الذي يحاول أن يصوره هؤلاء الأغرار، فقد كان العرب يخشون من قوة الدولتين وقد سبق ذكر قول عبد الرحمن بن عوف عن الروم، وعدم إجابة دعوة عمر بن الخطاب لغزو الفرس لمدة أربعة أيام، وقلق سعد بن أبي وقاص من استعدادات الفرس(١).

كذلك لا ننسى كثرة عدد المقاتلين من الدولتين، فما من معركة خاضها المسلمون معهما إلاّ وواجهوا قوات أكثر عدداً وأكثر عدة، والدول التي تحشد لمعركة واحدة مائة ألف وأكثر من ذلك لا يمكن أن توصف بأنها ضعيفة، كما أن بعض المدن استمر حصارها بضعة أشهر لكثرة المقاتلين وبسالتهم في القتال واستماتتهم فيه (٢)، لذلك يقول خالد بن الوليد-عن شدة المعارك في العراق-:" لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس"(٣).

الراشدون ص٥١، ط/٢،دار الكتاب الجامعي، القاهرة، سنة١٩٩٢م، د/عبد المنعم ماجد:التاريخ السياسي ص١٦١،محمد فخرالدين: تاريخ الفتح الإسلامي ص ٣٣٣، مطبعة بيت الحكمة، القاهرة، سنة١٩٣٢م، د/محمد ياسين:الهجمات المغرضة ص١١٠،د/ناصر الدين سعيدوني:الفتوحات الإسلامية ج١ص٢٣٢.

(١) ابن عساكر:تاريخ دمشق ج٢ص٦٢،ابن الأثير:الكامل ج٢ص٣٠٤، ابن كثير: البداية ج٧ص٣٨.

(٢) ابن عبد الحكم:فتوح مصر ص ص٤٨، ٥٢ ،٦١،ابن كثير: البداية ج٧ص ٨٨، د/جميل عبد الله: دواعي الفتوحات ٧٣،محمد فخر الدين: تاريخ الفتح ص ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج ٣ ص ٣٩٤، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٦ ص ص٢٤٧، ٢٤٨.

وعلى كل حال فقد كانت دولتي الروم والفرس أقوى إمبراطوريات العالم حينذاك، وكانتا أفضل من العرب من ناحية المهارة الحربية والعسكرية وكثرة الجند، وتجهيزهم بالأسلحة والعدة والعتاد، وسهولة حصولهم على المؤن والذخائر، فضلاً عن النجدات(١)، كما أنهم كانوا يقاتلون على أرضهم، وعلى الرغم من ذلك تفوق المسلمون عليهم بعقيدتهم ودينهم الذي بعثهم الله به.

ثانياً:سهولة الفتوحات:

وفي محاولة أخرى يحاول بعض المستشرقين أن يسلب العرب ثمرة كفاحهم وجهادهم في نشر دينهم وتحرير أهل البلاد المفتوحة من قهر الدولتين فيدعى أن سبب استمرار الفتوحات أن العرب كما قال فشر: "وجدوا النصر سهلاً"(٢)، ويقول سيديو:"الروم والفرس.. بدوا غنيمة سهلة غنيّة لمن يعرف كيف يأخذها"(٣)، أما برنارد فيتحدث عن فتح مصر فيذكر أن عمراً لما وصل إلى العريش" احتلها بسهوله الأمر الذي شجعه على التحول من الغزو إلى الفتح"(٤)،ويقول ويلز:"وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين"(٥).

وقد قال بهذا الرأي بعض الباحثين العرب(٦).

(١) محمد فخرالدين: تاريخ الفتح ص ٣٣٣، د/ محمد ياسين:الهجمات ص١١٠.
(٢) فشر: تاريخ أوربا ص٦٢.
(٣) سيديو: تاريخ العرب العام ص١١٦.
(٤) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص ص٧٢، ٧٣.
(٥) ويلز:موجز تاريخ العالم ص٢٠٤.
(٦) د/حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج١ص ص١٨٨، ١٨٩.

ونضيف إلى ما جاء في الرد السابق أن الفتوحات لم تكن بهذه السهولة، فالمسلمون اضطروا إلى الخروج من العراق إثر هزيمتهم في موقعة الجسر،وتستمر معركة القادسية ثلاثة أيام وطول ليلة اليوم الثالث حتى يكتب الله النصر للمسلمين في صباح اليوم الرابع، وأبو عبيدة يرد ما جُبي من الجزية حينما بالغة تجمع الروم لحربه، وإذا كانت المصادر لم تشر إلى قتال حدث عند استيلاء عمرو على العريش فإنها أشارة إلى أن الروم والقبط ظلوا لمدة شهر يقاتلون أمام حصن بابليون، واستمر القتال أما مدينة الكريون بضعة عشر يوماً، ولما أبطأ على الخليفة فتح الإسكندرية كتب إلى عمرو يسأله عن السبب، مما جعل عمرو يتنحى عن قيادة الجيش لعبادة بن الصامت حتى فتح الله على يده (١)، وهذه الشواهد تبين لنا عنف القتال والمقاومة، وأن الفتوحات لم تكن نزهه، وإنما جاءت بعد صبر وجهاد طويل.

ثالثاً:مساعدة القبائل العربية:

بالغ عدد غير قليل من المستشرقين في دور القبائل العربية المتنصرة في الشام والعراق ومصر، ومساعداتها للفاتحين، والتي ترجع لعدة أسباب بدأت بفرضيات وانتهت بنظريات ومسلمات، فقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن قطع هرقل المنحة التي كان يدفعها إلى القبائل العربية جعلها تنقلب عليه، وتساند الفاتحين، وممن قال بهذا الرأي أرنولد، وبرنارد، وثيودور نولدكه، وفيليب، ولوبون(٢)، ومن أقوالهم في هذا الصدد.

(١) أبو يوسف: الخراج ص١٣٩، ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ص٤٨ ،٥٢، ٦٠، ٦١، الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ص٤٥٥، ٤٥٨، ٥٦١، ٥٦٣.

(٢) أرنولد:الدعوة ص٦٦، برنارد:العرب ص ص٧٠، ٧١، ثيودور نولدكه: أمراء غسان ص ص٣١، ٤٩،ترجمة د/بندلي جوزي

قول برنارد:" ولا يسع المرء إلا أن يفرض أن قطع هرقل للمنحة المفروضة لهم سابقاً من قبل الدولة البيزنطية دفعهم إلى جانب العرب الفاتحين"(١).

في حين ذهب بعض المستشرقين إلى أن العرب المتنصرة تعاونوا مع الفاتحين بسبب سخطهم على حكامهم لما أنزلوه بهم من إيذاء، وممن قال بهذا الرأي أنتوني نتيج(٢)، وجيوم الذي يقول:"إن كلتا الإمبراطورتين ارتكبت نفس الخطأ الذي ارتكبته الأخرى فقبضت يدها عن ملوك العرب وأمعنت فيهم تقتيلاً وسجناً، وبذلك أحالت خير أعوان لها أعداءً متعطشين للانتقام" (٣).

كذلك يدعي بعض المستشرقين أن السبب في مساعدة القبائل العربية في العراق والشام للفاتحين ما كان يربط بينهم من صلات اللغة والجنس، ومن القائلين بهذا الرأي بتلر(٤)، وديورانت الذي يقول:"كان للصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل في التوسع فقد كان في الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة في قبولها حكم الغزاة"(٥)، وعلى حد تعبير فيليب:" قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الغاصبين"(٦).

وآخر،المطبعة الكاثوليكية،سنة ١٩٣٣م،فيليب حتى:تاريخ العرب ص١٩٩،لوبون:حضارة العرب ص١٠٨.

(١) برنارد لويس: العرب في التاريخ ص ص٧٠، ٧١.

(٢) أنتوني نتيج: العرب انتصاراتهم ص٥٧.

(٣) ألفريد جيوم: الإسلام ص١٧.

(٤) بتلر: فتح العرب ص١٨٧.

(٥) ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧٢.

(٦) فيليب حتى:تاريخ العرب ص١٩٩.

وقد أخذا بهذه الآراء عدد من المؤرخين المعاصرين (١).

وهذا الإجحاف لا يتفق مع ما جاء في المصادر الأصيلة التي تناولت الفتوحات الإسلامية وأثبت وفاء القبائل العربية لحكامهم من الفرس والروم، وأنهم لم يكونوا ساخطين لحكمهم حاقدين عليهم متعاونين مع أعدائهم، بل العكس هو الصحيح، ويتضح ذلك مما يلي:

أ- موقف القبائل العربية في الشام ومصر:

كان ملك الروم يطمئن لولاء القبائل العربية المتنصرة في الشام ومصر له، وإخلاصهم لسلطانه، إذ أنهم استدرجوا جند خالد بن سعيد إلى داخل الشام وهزموهم في مرج الصفر، في حين اصطدم خالد بن الوليد بقبيلة غسان وهو في طريقه إلى بلاد الشام، كما ساند بعض نصارى العرب الروم في أجنادين.

ولمّا سار الروم إلى اليرموك كان جبلة بن الايهم في المقدمة في ستين ألفاً، وقيل:أربعين ألف فارس من العرب المتنصرة،مما جعل خالد يقول لأبي عبيدة:" أيها الأمير أن القوم قد استعانوا علينا بالعرب المتنصرة وهم أضعاف عددنا وأن نحن نقاتلهم بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا وضعفاً"، ومن هؤلاء العرب اختار الروم رسلهم إلى قادة المسلمين ليصرفوهم عن القتال، وأما من قاتل إلى جانب المسلمين في المعركة من قبائل لخم وجذام فقد فروا إلى القرى القريبة وخذلوا المسلمين لما رأوا جِدّ القتال.

(١) د/أحمد شلبي: موسوعة التاريخ ج١ص٥٨٨، جرجي زيدان:تاريخ التمدن ج١ص ص٧٦، ٧٧، د/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ص١٧٦، د/السيد عبد العزيز سالم :تاريخ الدولة ص٤٦٧، محمد فخر الدين: تاريخ الفتح ص ص٣٣٤، ٣٣٥، د/محمد ياسين: الهجمات ص١١١.

وحينما نزل أبو عبيدة بن الجراح حمص اتصل عرب الجزيرة الفراتية النصارى بالروم واستثاروهم على المسلمين، وبعد فتح الجزيرة انسحب عدد كبير من العرب المتنصرة مع الروم، مما جعل أمير المؤمنين عمر يكتب إلى ملك الروم في ردهم، فعاد منهم أربعة آلاف، كما استمرت العرب المتنصرة يشاركون الروم معاركهم ضد المسلمين في آسيا الصغرى(١).

كذلك رحل جماعة من قبائل العرب المتنصر بالشام يزيدون على ثلاثة آلاف إلى مصر لوقف المد الإسلامي، ومساندة الروم في صراعهم مع الفاتحين وانضموا إلى القائد الروماني فيها (٢)، ولما فتحت دمياط، سار المسلمون إلى تنيس وكان عليها رجل يقال له" أبي ثور فبرز إليهم نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم، فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين، وانهزام أصحابه"(٣).

ولذلك يقول بتلر عن نصارى العرب:"وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين في سبيل دولة الروم ودين المسيح"(٤)،أما سيديو فيقول:كان "فتح قنسرين عنوة بعد هزيمة الروم والغساسنة"،وكان

(١) الواقدي: فتوح الشام ج١ ص ص١٥٦، ١٥٨،البلاذري:فتوح البلدان ج١ص ص٨٥، ١٦٦، ج٢ص٩٨، الطبري:تاريخ الرسل ج ٣ ص ص ٣٨٩، ٣٩٥، ٤١٠، ٤١٧، ٤١٨، ج ٤ ص ص ٥٠، ٥٤، ٥٥، د/محمد عزب: القبائل العربية ص ص١٢٧، ١٤٥، ١٤٧.

(٢) الواقدي: فتوح الشام ج٢ص ص٦١ ،٦٢، د/جميل عبد الله: دواعي الفتوحات ص٦٠.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ص٢٨٦.

(٤) بتلر: فتح العرب لمصر ص١٨٧.

يسير على رأس جيش الروم في اليرموك عرب غسان" وكان هرقل يعتمد كثيراً على هؤلاء العرب فيقول:لا يقطع الماس إلا الماس"(١).

ب ـ موقف القبائل العربية في العراق:

لم يختلف موقف القبائل العربية في العراق عن نظيرتها في الشام، فقد كان كسرى يطمئن إلى ولاء أكثر القبائل العربية التي خضعت لسلطانه ومن ثم جعل عليهم قائداً منهم، وجههم للقاء العرب في الولجة، كما قاتلت العرب المتنصرة إلى جانب الفرس في مواقع أليس،وعين التمر، ودومة الجندل،والحصيد والخنافس، والمضيخ، والثني والزميل، والفراض وتكريت، والموصل (٢)، بل إننا نجد القبائل العربية في عين التمر يطلبون من الفرس أن يخلوا بينهم وبين العرب قائلين لقادة الفرس:"إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً"(٣)، فقد كانت القبائل العربية المتنصرة أشد كراهية للمسلمين وقائدهم من الفرس(٤)، ولذلك يقول سيديو:"كان يُعتقد أن قبائل العرب في العراق تسرع إلى خلع نَير-ثَوب- الفرس، فلم تصنع شيئاً من ذلك، فما وجد المسلمون في تلك البقاع غير أعداء"(٥).

وأخيراً:ينبغي أن نشير إلى حقيقة يَغُض بعض المستشرقين الطرف عنها، إلا وهي: أن عدداً من القبائل دخلوا في الإسلام فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجب الجهاد ونصرة الدين،

(١) سيديو: تاريخ العرب ص ص١٢١، ١٢٢.
(٢) الطبري:تاريخ الرسل ج٣ ص ص ٣٥٣ ،٣٥٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣،ج٤ص ص ٣٥، ٣٦،د/ السيد يونس:الفتوحات ص ٢٠، د/محمد حسين: الصديق ص ص ٢٠٩ ،٢١٤، ط/٦،دار المعارف، القاهرة، سنة١٩٧١م.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج ٣ ص ٣٧٦.
(٤) د/ السيد يونس :الفتوحات ص ٤٣.
(٥) سيديو: تاريخ العرب العام ص١١٧.

فنخرطوا في صفوف المجاهدين وآية ذلك أن عبد الله بن المُعتمّ لم يقبل مساعدة قبائل العرب من إياد و تغلب والنَّمر في فتح تكريت إلا بعد أن أقروا بالإسلام(١).

وكان"سياه الأسواري" على مقدمة "يزدجرد" التي وجهها من أصفهان لحرب المسلمين، فلما رأي هذا القائد الهزائم التي منية بها جيوش الفرس أرسل إلى المسلمين بقوله: "إنا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وإن قاتلنا أحدُ من العرب منعتمونا منه" فقبلوا شرطهم(٢).

أما مساعدة غير هؤلاء الذين اسلموا من أهل البلاد المفتوحة، فكانت وفاءً منهم بما قطعوه على أنفسهم من عهد يوم أن صالحوا المسلمين، كما جاء في معاهدة أهل الرّي، وأهل قومس،وأهل جرجان، وأهل إصبهان والذين جاء في صلحهم "ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوما وليلة وحملان الراجل إلى مرحلة"(٣)، بينما نصت معاهدة أهل قبرص على" أن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم"(٤).

يضاف إلى ذلك أن بعض المعاهدات كانت تنص على مساعدة أهل البلاد للمسلمين مقابل إعفائهم من الجزية، وآية ذلك قول شهربراز ملك الباب:"وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبّون، فلا تذلّونا بالجزية" فقبل المسلمون"وصار سنّة فيمن كان يحارب العدوّ من المشركين، وفيمن لم يكن عنده الجزاء، إلاّ أن يستنفروا

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج ٤ص ص٣٥، ٣٦.
(٢) البلاذري:فتوح البلدان ج١ص٣٦٦، الطبري:تاريخ الرسل ج ٤ص ص٨٩، ٩٠، ابن الأثير:الكامل ج٢ ص٣٩٤.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج ٤ص ص١٤١، ١٥١، ١٥٢.
(٤) البلاذري:فتوح البلدان ج١ص١٥٨.

فتوضع عنهم جزاء تلك السنة"(١)، وذلك لأن الجزية تأخذ منهم – كما سبق– مقابل حمايتهم وإعفائهم من الجندية، فإن لم يف المسلمون بذلك أو اشترك أهل البلاد في الجندية سقط حق المسلمين في أخذ الجزية.

رابعاً:موقف أهل البلاد من الفاتحين:

ذهب بعض المستشرقين إلى أن من بين أسباب انتصار المسلمين على دولتي الفرس والروم موقف السكان المحلين من الفاتحين، وما كانوا يقابلونهم به من ترحيب، وممن قال بهذا الرأي بروكلمان،وفيليب، ونتيج(٢) ، الذي يقول:"وكما حدث لخالد في العراق لقي عمرو ترحيباً من القبائل المحلية بمجرد وصله إلى أرض مصر"(٣)، بينما يقول فيليب: "وقد استقبل أهل دمشق الفاتحين بالترحاب وبالهتاف.. ولم يكن ترحاب دمشق بأسيادها ترحاباً فريداً من نوعه فإن أهل شيرز..استقبلوهم استقبالاً حاراً، وكان في عداد المستقبلين المغنون وضاربوا الطبول"(٤).

بينما أرجع بعض المستشرقين سرعة تقدم الفاتحين إلى سلبية أهل البلاد، وأنهم لم يضمروا لأسيادهم إلا أقل الحب، فيقول حوراني:إن أهل البلاد المقهورة بخلاف الحكام لم يكونوا يبالون بمن"يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون في سلام ويدفعون ضرائب

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج ٤ص ١٥٦.
(٢) بروكلمان:تاريخ الشعوب ص١٠٠، فيليب حتى: صانعوا التاريخ ص ص٤٤، ٤٥، نتيج: العرب ص٧٧.
(٣) أنتوني نتيج: العرب ص٧٧.
(٤) فيليب حتى:صانعوا التاريخ ص ص٤٤، ٤٥.

معتدلة" (١)، وبمثل هذه الادعاءات قال كل من : برنـــارد لـــويس، وفلوتن، و ويلز (٢).

أما جيوم فيدعي أن سبب تقدم العرب في الفتوحات يرجع إلـــى "معاونة المسيحيين المحليين الكارهين لقسوة البيزنطيين واضطهادهم إياهم، وكل ما كان على العرب أن يفعلوه هو هزيمة عدد من القوات الناقمة، وكان ذلك سهلاً نسبياً لأن الشعب في سوريا رحـــب بهـــم، وانضم إلى قواتهم"(٣)، بينما يقول بروكلمان: إن المسلمين انتصروا في اليرموك لأن "الأرمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية غير راغبين في القتال"(٤).

ولكن قبل أن نجيب على هذا الرأي نطرح سؤالاً فحواه هل كان هذا الترحيب والسلبية من كل أهل البلاد المفتوحة، أم أنه كان موقف طائفة دون أخرى؟

مما لا شك فيه أن الترحيب والسلبية كانا موقـــف بعـــض أهـــل البلاد وليس الكل، فعلى الرغم من كتاب الأب بينامين للقبط "يعلمهـــم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال:إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمـــرو أعوانـــا"(٥)، وأنهم اعتبروا ما حل بالروم عقاب من الله لهم (٦)، على الرغم من ذلك كله وقف بعض القبط إلى جانب الروم في حروبهم ضد المسلمين

(١) حوراني: تاريخ الشعوب العربية ج١ص٦١.
(٢) برنارد:العرب ص٦٦، فلوتن:السيادة العربية ص١٩، ويلز:موجز تاريخ العالم ص٢٠٤.
(٣) الفريد جُيوم :الإسلام ص٢٠.
(٤) بروكلمان:تاريخ الشعوب ص٩٥.
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤٩.
(٦) ساويرس بـــن المقفـــع: ســـير البطاركـــة ص٩٩،دار الفنـــون طوبنيكن،سنة ١٩١٢م.

في مواقع عديدة، كما أن الفرس كاتبو أهل السواد فثاروا بالمسلمين(١)،مع أن المعارك لم تكن مع أهل البلاد، وإنما كانت مع المحتلين لديارهم من الفرس والروم الذين أكلوا خيرات بلادهم ونهبوا ثرواتها، وساموهم سواء العذب(٢).

وأخيراً:لماذا لم ينقلب الأرمن- والذين كانوا يمثلون نصف الجيش-على الروم، ويقاتلوهم مع المسلمين؟.

ومن ثم رأينا بتلر يستدل من مقاومة أهل مصر للفتح على فساد رأيين يذهب إليهما الباحثين: أولهما: إن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع، وثانيهما:إن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه(٣).

خامساً: عدم وجود عقبات في طريق الفاتحين:

يدعى فيشر أنه لم تكن ثمة عقبات في طريق الفتح من الناحية العقدية"لأن وحدانية الإسلام لم تختلف عما قالت به المسيحية المونوفيزتية- أي الطبيعة الواحدة للمسيح- التي ألفها أهل مصر والشام منذ انقسام العالم المسيحي حول طبيعة المسيح" (٤) .

والرد على هذه الفرية سهل وبسيط فقد فضح الإسلام- اليهود- والنصارى، وبين فساد عقيدتهم، فوحدانية الإسلام تقول:

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ص ٥٢ ،٦٣، ٦٥، ٦٦، الطبري: تاريخ الرسل ج٣ص ٤٤٩، المقريزي: المواعظ ج١ص ص٢٦٨، ٢٨٦.

(٢) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ص ص١٩٩، ٢٠٠، ٢٢٠، د/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ص ١٨٤، د/السيد يونس: الفتوحات ص٢٩٢.

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص٣٢٣.

(٤) فشر: تاريخ أوربا ص٦٥.

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(١) ، أما وحدانية النصارى فتقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٢) ،فكيف لا يقيم الكفر بعد ذلك العقبات للإيمان؟ وكيف لا يضعون العقبات؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣) .

فضلاً عن بيان القرآن لتحريفهم لكتبهم إلى غير ذلك من أباطيلهم التي فضحها القرآن ونبي الإسلام، فإذا أضفنا إلى ذلك تكفير النصارى لمن دخل منهم في الإسلام، ووصفهم بالخيانة (٤)، تبين لنا إلى أي مدي كانت العقيدة تُشكل عقبة في طريق الفتوحات، وقد سبق قول بتلر: إن النصارى كانوا يقاتلون مستميتين في سبيل دين المسيح (٥).

ولو كان ما ذهب إليه فشر حقاً لكان لزاماً أن يسارع أهل البلاد إلى الدخول في الإسلام لا إلى قتال المسلمين، ولكن التحمس الشديد لدينهم جعلهم يقولون-على سبيل المثال- للمقوقس: "أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا ما لا يكون أبداً أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه"(٦)، فأين الوحدانية التي مهددة بها المسيحية للإسلام؟.

(١) سورة الإخلاص: الآيات ١-٤.
(٢) سورة المائدة: الآية ٧٢.
(٣) سورة التوبة: الآية ٣١.
(٤) سيديو: تاريخ العرب العام ص١١٨.
(٥) بتلر: فتح العرب ص١٨٧.
(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ص٥٤، ٥٥.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه. وبعد.

فمن خلال استعراض آراء المغرضين من المستشرقين في الفتوحات الإسلامية، تبين أن كثرها ليست وليد عصرهم وإنما هي وليد عصر الفتوحات ذاته،وأن افتراءاتهم تكفلت المصادر الإسلامية بدحضها بيد أنهم صموا آذانهم، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ- فلم يروا الحقيقة في وضوحها كالشمس في كبد السماء- فأنكروا عالمية الإسلام، وزعموا أن المسلمين أجبروا أهل البلاد على اعتناق الإسلام، وأن الهدف الأول من غارات العرب على جيرانهم النهب والسلب، ولذلك جاءت فتوحاتهم ارتجالية، وساعدهم على ذلك ضعف دولتي الفرس والروم، وترحيب أهل البلاد بهم، وقد نقل بعض هذه الآراء بعض الباحثين المسلمين والعرب.

ولأن تلك الآراء إفك وبهتان رأينا المنصفين من المستشرقين ممن تجردوا من العصبية والهوى، ودرسوا الفتوحات دراسة موضوعية -فجاءت آراؤهم مضيئة بضياء الإسلام مقتبستاً من حقائقه- يدحضون آراء إخوانهم فيثبتون أن الباعث الحقيقي للفتوحات هو نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة دون ضغط أو إكراه،لأن الفاتحين كانوا يخيرون أهل البلاد بين الإسلام والجزية والقتال-الذي شرعه الله عزوجل لإزالة العقبات من طريق الإسلام لا لإكراه الناس عليه- فضلاً عن نشر العدل والمساواة بينهم ورفع الظلم الواقع عليهم، وأن الفاتحين لم يخرجوا من ديارهم من أجل دنيا يصيبونها،أو عروش يجلسون عليها، وإنما أخرجهم الدين الذي أمروا بتبليغه للناس كافّة، ومن ثم كانت أموال الجزية التي يأخذونها

من القادرين من أهل البلاد-مقابل إعفائهم من الجندية- ينفقون أكثرها في تعمير بلادهم، ومساعدة غير القادرين من أهالي تلك البلاد.

أما سر سرعة الفتوحات وخلودها فيرجع إلى يقين المسلمين بصدق وعد رب العالمين لهم بالتمكين في الأرض، وبشارة النبيﷺ لهم بفتح تلك البلاد، والتزامهم بالإسلام عقيدة وشريعة، فما كاد الإسلام يظهر حتى احترق فيه الباطل، وكل ما لم يكن بحق فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب، وكان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولته، وصدق الله القائل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.